جامعة الأزهر الشريف
كلية أصول الدين – القاهرة

البيـــــان

في ما جاء من خلاف مقتضى الظاهر في القرآن
دراسة لبعض الصور والنماذج

دكتـــور
حسن عبدالحميد حسن وند
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد
في كلية أصول الدين – القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا * قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾[1]

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أنزل القرآن هدى للمتقين وأودع فيه من الأحكام والأخلاق ما فيه سعادة الدارين للناس أجمعين وأشهد أن سيدنا محمداً عبدالله ورسوله ، وأمينه على وحيه وحبيبه أرسله ربه رحمة للعالمين ، وقدوة للعاملين، ومحجة للسالكين ، وحجة على العباد أجمعين ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ، وأتباعه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد :

فإن القرآن كتاب الإسلام الخالد ، كرم الله به الإنسان وشرفه ، وجعله معجزة تخاطب العقل والقلب ، والفكر ، والوجدان ، معجزة حية قائمة لا تنقضي بانقضاء العصور ، وحجة نيرة قاهرة لا تغنى على مر الدهور ، وآية باقية ظاهرة محفوظة في الصدور وفي السطور .

وقد أقر المفكرون والعلماء والأدباء – من قديم – بأن القرآن الكريم نمط من القول غير مسبوق ، وشهدوا بماله من سحر التأثير وروعة البيان وكمال الإعجاز، ثم حاروا في تعليل وتعديد نواحي إعجازه ، وأسرار تأثيره.

والناظر في القرآن الكريم يعلم أن سورة مائة وأربع عشرة سورة ، وكل سورة تختلف عن أختها في الطول والقصر ، فمن السور ما يزيد على المائتين من الآيات كالبقرة والأعراف ، ومنها ما يقارب المائتين مثل آل عمران ، والنساء ، ومنها ما يبلغ المائة أو يزيد كالنحل واللتين بعدها ، ومنها ما ينقص عن المائة وهو كثير حتى بلغت أقصر سورة فيه ثلاث آيات وهي سورة الكوثر.

وكذلك آياته تختلف في الطول والقصر كما لا يخفى ، فمنها ما يصل إلى عشرة سطور أو يزيد كآية الدين ، ومنها ما يقارب الخمسة سطور كآية "تلك الرسل"

---

(١) سورة الكهف الآيات ١ – ٣ .

وبعدها آية الكرسي ، ومنها ما يبلغ عدة كلمات ، وقد تكون الآية فيه كلمة واحدة كقوله عز شأنه ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾.(١)

ثم إن فواصله كذلك ليست على نهج واحد ولا على نسق معين ، فقد يلتزم في بعض السور فاصلة على حرف خاص بحيث تأتي جميع الفواصل في تلك السورة على ذلك الحرف مثل سورة الفيل ، وسورة الكوثر ، وسورة الإخلاص ، وقد لا يلتزم ذلك فيختلف الحرف الأخير من الفواصل في أثناء السورة الواحدة ككثير من سور القرآن.

وقد تكون السورة كلها على حرف معين – أي الفاصلة – وتأتي فيها آية لها فاصلة على حرف آخر خلاف الفاصلة الغالبة مثل سورتي المزمل ، والمسد ، وقد تقع الآية الطويلة بين آيات قصيرة كقوله تعالى في سورة المدثر ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا... ﴾ الآية(٢) كما تقع الآية القصيرة في سورة معظم آياتها طويلة كقوله تعالى ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٣) و ﴿ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٤) ألا ترى ذلك شاهداً بأن أسلوب القرآن مع كونه مخالفاً لسائر الأساليب العربية المعروفة ليس على نهج واحد ، ولا على سنن ثابت ، بل تكاد كل سورة فيه تختلف عن صاحبتها في الأسلوب والعرض والأغراض الخ وهذا أمر يدهش العقول ويحير الألباب ، ويترك البليغ معقود اللسان ، مرتبك البيان.

وإذا كانت اللغة العربية يغلب عليها أن تأخذ في صياغة أساليبها بما يقتضيه ظاهر الحال من المطابقة والوضوح ، فقد تأخذ أحياناً بما يخالف ظاهر الحال لا عبثا من عابث ، ولا اجتراء من مستهتر ، وإلا فقدت الأساليب خصائصها المميزة ، وأصبحت مسوخاً شائهة لا قيمة لها ولا وزن في سوق الفصاحة ، ولكنها تركن إلى هذا الخلاف قصداً إلى إشارة لطيفة أو لمحة دقيقة.

---

(١) سورة الرحمن الآية ٦٤ .

(٢) سورة المدثر الآية ٣١ .

(٣) سورة البقرة آية ١٤٧ .

(٤) سورة البقرة آية ١٩٢.

والقرآن الكريم في الذروة العليا من هذا كله ، فإنه يعمد في مواضع كثيرة إلى خلاف مقتضى الظاهر في التعبير غير مبال بالمطابقة التي توجبها قوانين اللغة في التعبير وما فيها من القواعد والأحكام ، وفي هذا الخلاف يكمن السر ، وإليه يكون القصد للتفكير في مغزاه والوصول إلى مرماه.

إن كل لفظ في القرآن عاشق لموضعه ، وكل موضع في القرآن جاذب للفظه وهذه محاولة متواضعة لكشف النقاب عن بعض أسرار مخالفة مقتضى الظاهر في نماذج من آيات الكتاب أسميتها :

(البيان في ما جاء على خلاف مقتضى الظاهر في القرآن – دراسة لبعض الصور والنماذج) .

وقد قسمت هذه الدراسة إلى مقدمة وثلاثة مطالب وخاتمة.

المطلب الأول : مطلب تمهيدي عن إعجاز القرآن .

المطلب الثاني : صور ونماذج من خلاف مقتضى الظاهر في الاسم الظاهر .

المطلب الثالث : صور ونماذج من خلاف مقتضى الظاهر في الضمائر .

و الخاتمة : خلاصة موجزة لهذه الدراسة .

ولا أداعي إحصاء ما ورد من ذلك في القرآن الكريم ، ولكن حسبي هنا أن أضرب من الأمثال على قدر الطاقة ، ومن غير أن أصل إلى أقصى الغاية ، وإنما أسدد وأقارب ، بل المقاربة فوق الطاقة.

ولا غرو فقد سبقنا إلى البحث في هذا الميدان فحول البيان ، وجهابذة علماء التفسير والقرآن ، فهي محاولة وسير على الدرب ، وإبراز لبعض جوانب العظمة في القرآن ، ودعوة للبحث في أمثال هذه الجوانب العظيمة الشأن.

وإني لأعترف بأني تهيبت كثيراً ، وتوقفت طويلاً ، وكلما قدمت رجلا أخرت الأخرى خشية عدم الوفاء بجلال الآيات القرآنية ، ووصفها بما لا يليق بقداستها، ولا يجلي أنوارها ويكشف أسرارها.

ولكن الرغبة الملحة في تسليط الضوء على هذا الجانب من الدراسة القرآنية والتنقيب في أسرار هذا الكتاب المعجز ، والحرص على إبراز بعض من كنوزه ، كل ذلك كان الباعث الذي دفعني إلى الكتابة وجرأني على الإقدام.

فلئن أكن قد جرؤت على الكتابة في هذا الموضوع بعد طول تهيب فليشفع لي أني حشدت كل طاقتي وجهدي ، وأن الأمر فيه لتجاوز كل طاقة وجهد ، وإني لا أجهل أن المدى الذي بلغته في محاولتي محدود على قدر طاقتي وجهدي ، فإذا كنت قد وفقت فمن الله تعالى وحده ، وله سبحانه الحمد والشكر كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه ، وإن كانت الأخرى فحسبي بذل الوسع وإفراغ الجهد ، وإخلاص النية ، وصلاح القصد ، والله الكريم أسأل أن ينفع بهذا البحث ، وأن يكتب له القبول ، وأن يضاعف به أجرى ، ويغفر به ذنبي ، ويثبت به عقيدتي ، ويقوي به إيماني.

﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ هود (٨٨)

وكتبه

حسن عبدالحميد حسن وتد

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد

في كلية أصول الدين – القاهرة

المطلب الأول

وهو مطلب تمهيدي في الإعجاز القرآني

تتسم الألفاظ القرآنية بالتآلف في النطق والنغم ، والتآخي في المعنى لكل كلمة سبقت ، فالتآلف في الألفاظ بألا تكون بينها نفرة في المخارج ، ولا نفرة في النغم، والتآخي في المعاني كالتآخي في المباني فلا يكون معنى لفظ نافراً من المعنى الذي يجاوره.

هذا والتآخي في المعاني والألفاظ ، ونسقها ونغمها ، واضح في كل آيات القرآن لا في آية دون أخرى ، ولا في سورة دون أخرى ، فلا تجد لفظا فيه معنى يوجه النفس إلى ناحية ، ويليه آخر يوجهها إلى ناحية أخرى ، بل تجد النواحي متحدة، فلا تنافر في الألفاظ ولا تضاد في المعاني.

وليس بخفي على اللبيب الحذق أن كل لفظ في كتاب الله له معنى قائم بذاته، وفيه إشعاع نوراني يتضافر مع جملته ، ويساعد بعضه بعضا في المعاني العامة للأسلوب ، والعبارات الجامعة ، فكل شيء في القرآن معجز .

وجوه الإعجاز القرآني :

بادئ ذي بدء أقول إن موضوع البحث ليس منصباً على الإعجاز القرآني وبيان وجوهه وأسراره ، فهذا موضوع جدير بدراسات مستقلة موسعة ، وقضية الإعجاز قد استحوذت منذ وقت مبكر على قدر كبير من اهتمام العلماء وعنايتهم ، وكانت هي الدافع القوي وراء ما بذلوه من جهود مباركة ، يرمون من ورائها إلى تحقيق هدف ديني أصيل ، جدير بأن يبذل في سبيله كل جهد ، وتستنفد كل طاقة.

نعم إن ميدان إعجاز القرآن رحب ، صالت وجالت فيه أقلام العلماء ، وطوفت في رحابه عقول المفكرين والأدباء ، وألفت فيه مؤلفات قيمة من أفذاذ البيان وفرسان البلغاء ، ومن جهابذة المفسرين كذلك على حد سواء ، وتعددت المشارب، وتنوعت المذاهب ، واختلفت المناهج ، والكل أمام جلال كتاب الله يرفع لواء التسليم بتعدد نواحي الإعجاز .

وفي مقدمة كتاب إعجاز القرآن للباقلاني يقول الدكتور/ محمد عبدالمنعم خفاجي : أشهر من كتبوا في الإعجاز القرآني :

إعجاز القرآن لأبي عبيدة ت سنة ٢٠٨ هـ

نظم القرآن للجاحظ ت سنة ٢٥٥ هـ

إعجاز القرآن للواسطي ت سنة ٣٠٦ هـ

وقد شرحه الجرجاني ت سنة ٤٧١هـ شرحا كبيراً سماه المعتضد .

نظم القرآن لابن أبي داود ت سنة ٣١٦ هـ

إعجاز القرآن للرماني ت سنة ٣٨٣ هـ

إعجاز القرآن للخطابي ت سنة ٣٨٨ هـ

إعجاز القرآن للباقلاني ت سنة ٤٠٣ هـ

دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ت سنة ٤٧١ هـ

فخر الدين الرازي ت سنة ٦٠٦ هـ

ابن أبي الأصبع ت سنة ٦٥٤ هـ

الزملكاني ت سنة ٧٢٧ هـ

إعجاز القرآن لمصطفى صادق الرافعي ت سنة ١٩٣٧م . (١)

وإنني لعلي يقين كامل بأن وجوه الإعجاز القرآني تفوق الحصر، ولا يقبل قول من يدعي الإحاطة بها والإلمام بأطرافها ، أو القبض على زمامها.

وما ذكره العلماء في كتبهم إنما هو نماذج ، أو أشهر الوجوه في نظرهم ولذلك تباينت أقوالهم وتعدد آراؤهم .

وعلى هذا النحو يمكن أن نفهم ما ذكره الأئمة في مصنفاتهم فها هو القاضي عياض – رحمه الله تعالى – قد حصر أوجه الإعجاز في أربعة منها:

١– حسن تأليفه والتئام كلمه ، وفصاحته ، وبلاغته الخارقة عادة العرب.

٢– صورة نظمه العجيب ، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب. (٢)

ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه ، ووقفته عند مقاطع آيه ، وانتهاء فواصل كلماته ، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له . اهـ

(١) مقدمة شرح إعجاز القرآن للباقلاني للدكتور / محمد عبدالمنعم خفاجي ص٢٥ .

(٢) يقصد رحمه الله الأسلوب القرآني العام في كونه لا هو من قبيل النثر المألوف ، ولا هو من قبيل الشعر المعروف ، وأما في تضاعيف الآيات فإنها على وفق أسلوبهم من اشتمالها على نداء، واستفهام ، وأمر ونهي وإيجاز وإطناب ، وتورية وكناية واستعارة وتشبيه ومجاز الخ. وبدهي أن القرآن ليس من الرسائل أو الخطب ، وكذلك ليس من السجع ولا الشعر في شيء ، وهو مخالف لما كانت العرب تنهجه في نثرها ونظمها.

ثم ذكر – رحمه الله – وجهين آخرين يتعلقان بصدق الأخبار التي اشتمل عليها القرآن الكريم. (١)

وذكر القرطبي – رحمه الله – في تفسيره أن أوجه الإعجاز عشرة ، ثم عدها وذكر في أولها :

(١) النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب وغيرهم ، لأن نظمه ليس من نظم الشعر في شيء ، لذا قال رب العزة سبحانه ﴿ **وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ** ﴾ (٢)

(٢) ومنها الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب.

(٣) ومنها الجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال من الأحوال.

ثم نقل عن ابن الحصار قوله : وهذه الثلاثة من النظم والأسلوب والجزالة لازمة كل سورة ، بل هي لازمة كل آية ، وبمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر ، وبها وقع التحدي والتعجيز... الخ .

(٤) ومنها: التصرف في لسان العرب على وجه لا يستقل به عربي ، حتى يقع منهم الاتفاق من جميعهم على إصابته في وضع كل كلمة وحرف موضعه.

ثم ذكر باقي الأقوال (٣).

إن جمهور المتحدثين عن إعجاز القرآن يذهبون إلى أن إعجازه ذاتي ، والحق معهم والملاحظ فيما ذكره القاضي عياض والقرطبي – عليهما الرحمة – من وجوه الإعجاز أنه يتداخل بعضها في بعض كما يقول الشيخ / محمد أبو زهرة ، أو أنهما جعلا ما يتعلق بالنظم جزءاً منه خاصاً بفصاحة القول ، وجزءاً يتعلق بالنظم ، وجزءاً يتعلق بالأسلوب ، وجزءاً يتعلق بالجزالة ، وجزءاً يتعلق بالتصرف في القول ، وكل ذلك يتعلق بالمنهج البياني القرآني ، وهذه الكلمة تجمع تلك الأقسام كلها فلا تخرج من عمومها خارجة. (٤)

(١) الشفا ١٧٤/١ وما بعدها .

(٢) سورة يس الآية ٦٦ .

(٣) انظر تفسير القرطبي ٧٣/١ وما بعدها .

(٤) المعجزة الكبرى القرآن ص٨٢.

والحق أن إعجاز القرآن – كما أشرنا – من نواح شتى تعز على الاستقراء، ولنقصر الإشارة التي نود أن نوردها في هذا المطلب التمهيدي على جانب من جوانب ألفاظ القرآن وذلك قبل أن نتحدث عن بعض تلك الألفاظ التي وردت على خلاف مقتضى الظاهر .

محور الارتكاز ودائرة الفلك

اختلف قادة البيان وفرسان الكلام في أساس الفصاحة أو البلاغة هل هي في الألفاظ ذاتها؟

أو : في الألفاظ في تراكيبها وأسلوبها المعبر عنه بالنظم ؟

وعلى كل حال فهم غير مختلفين في الماصدق ، وإن اختلفوا في التعريف اللفظي لحقيقة الفصاحة وحقيقة البلاغة .

وقبل أن نشير باختصار – لمقتضى الحال – إلى اختلافهم نقول :

إنه اختلاف في الاصطلاح ولا مشاحة في الاصطلاح ، إنما المشاحة تكون في المعاني الجوهرية.

وها هو صاحب نظرية النظم ، وإمام من أئمة البيان ، وواحد ممن يشار إليهم بالبنان الإمام عبدالقاهر الجرجاني يقرر أن اللفظ والحرف ليس لهما أثر في كون الكلام بليغاً أو غير بليغ ، إنما الأثر في مجموع ما يدل عليه النظم يقول رحمه الله :

"... فينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف ، وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلم ، إخبارا وأمراً ونهياً واستخباراً ، وتعجباً ، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة ، وبناء لفظة على لفظة .

هل يتصور أن يكون بين اللفظتين تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه أدل على معناها الذي وضعت له عن صاحبتها على ما هي موسومة به ، حتى يقال إن (رجلا) أدل على معناه من (فرس) على ما سمي به وحتى يتصور في الاسمين الموضوعين لشيء واحد أن يكون هذا أحسن نبأ منه ...

ثم يقول رحمه الله :

وهل يقع في وهم أحد وإن جهد أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم ، وبأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة ، وتلك غريبة وحشية ، أو أن تكون حروف هذه أخف وامتزاجها أحسن، .. وهل تجد أحداً يقول : هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها ؟

وهل قالوا : لفظة متمكنة ومقبولة ، وفى خلافه : قلقة ونابية ومستكرهة إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن من حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما ، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم ، وأن الأولى لم تلتق بالثانية في معناها ، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفظا للتالية في مؤداها. ١ هـ.

ثم ضرب المثل – رحمه الله – بقوله تعالى﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ الآية[1] بأن الإبهار والإعجاب الذي يجده القارئ للآية إنما يرجع إلى ارتباط هذا الكلام بعضه ببعض ، وأن الفضل نتج مما بينها ، وحصل من مجموعها ، وانظر لو أخذت لفظة واحدة ونظرت إليها بعيدة عن أخواتها هل تجد فيها ما تجده وهي في مكانها في الآية ؟ [2]

فالإمام عبدالقاهر يؤكد أن الكلمة ليس لها فصاحة ولا بلاغة في ذاتها ، ولو كان لاستحسنت دائماً وما استهجنت أبداً ، وإنما فصاحتها وبلاغتها في اجتماعها مع غيرها وتلاقيها في نسق واحد مع أخواتها ، وما تنتجه من صور بيانية .

ولكن إذا كان هذا رأي الجرجاني – وله مقامه ومكانه – فهناك فريق آخر يرى للحروف وللكلمات فصاحة عندما تتلاءم حروفها ، ولا تتجافى في مخارجها ، ولا يكون فيها تكرار ومنهم الجاحظ والباقلاني ، وقد ذكر الأخير ما يدل على أن للكلمات ذاتها فصاحة وبلاغة وأن تخيرها يدل على قدرة قائلها وعلو بيانه فقال تحت المعنى السابع من الفصل الذي عقده لجملة وجوه إعجاز القرآن :

---

(١) سورة هود الآية ٤٤ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٩٢ وما بعدها.

قد علم أن تخير الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة ، والأسباب الدائرة بين الناس أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة ، وأسباب مستحدثة ، فلو برع اللفظ في المعنى البارع كان ألطف وأعجب ..." ثم يقول: وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير ،

وهى غرة جبينه ، وواسطة عقده ، والمنادي على نفسه بتميزه ، وتخصصه ، وبرونقه وجماله ، واعتراضه في حسنه ومائه " [1].

وهذان الرأيان في الظاهر متعارضان ولكن عند التحقيق نعلم أن الخلاف بينهما خلاف شكلي وليس جوهريا ، إنه خلاف في الاصطلاح و لا مشاحة في الاصطلاح فالألفاظ في الكلام البليغ لها مقصد خاص من المتكلم إما لنغمتها وإما لمعناها وإما لهما معا ، ولا يكون مرادفها صالحاً لأن يحل محلها.

وللشيخ أبي زهرة كلام قيم في الجمع بين هاتين النظرتين والتوفيق بينهما حيث يقول ما ملخصه:

والخلاف بين الفريقين إنما هو في أمرين غير جوهريين :

أولهما : أن الجرجاني لا يعتبر للألفاظ منفردة فصاحة أو بلاغة إلا في ضمن كلام مجتمع وحينئذ يكون التآخي أولا وبالذات في المعاني ، وكون الألفاظ واضحة الدلالة على هذه المعاني ، والتآخي يكون في المعاني ابتداء .

ثانيهما : أن لا يعتبر الفصاحة غير البلاغة ، لأن الفصاحة عند من يفرقون بين الفصاحة والبلاغة تكون في تلاؤم الحروف ، وتلاؤم الكلمات للألفاظ .

وإن ذلك اختلاف اصطلاح ولا مشاحة في الاصطلاح ، إنما المشاحة تكون في المعاني الجوهرية .

ويسلم الجرجاني بأن للألفاظ جمالا ، وأنها في النظم تكون لنغماتها وألحانها مساعدات للمعاني ، ولكنه يمنع منعا مطلقا – ونحن معه – أن تكون الألفاظ وحدها، والكلمات منفردة سبباً للإعجاز ، إنما الإعجاز يكون في أمور كثيرة منها تناسق الكلمات وما تشعه من معان وأخيلة بيانية ، في وسط أسلوب مكتمل البنيان يلتقي بنغمة

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني – تعليق د/ خفاجي ص٩٤.

وفواصله ، وصوره البيانية مع الألفاظ المحكمة والمعاني السليمة التي لم يكن للناس عهد بها من قبل . ١ هـ [1]

وعلى كل حال فمما لا يشك فيه منصف أن واحداً من الأئمة لا ينكر أن الألفاظ في الكلام البليغ لها مقصد خاص من المتكلم لأي اعتبار من الاعتبارات واللفظ في ضمن الأسلوب البياني القرآني الرائع له معنى قائم بذاته ، وفيه إشعاع نوراني يتضافر مع جملته ، ويساعد بعضه بعضاً في المعاني العامة للأسلوب والعبارات الجامعة.

نعم إن ألفاظ القرآن اختيار إلهي لا يخلو من حكم عديدة ، ووضع الكلمة بجوار أختها في سياقها المتلائم هو بحكمة إلهية عليا ، وبالتالي فالكلمة ينظر إليها في سياقها ولا يبدو جمالها ويتجلى إشعاعها إلا في سياقها ، ولا يمكن أن تنزع كلمة من سياقها وينظر إليها وهي منفردة ثم يقال عنها فصيحة أو غير فصيحة ، أو بليغة أو غير بليغة .

فهل يعجز أحد أي أحد أن يقول مثلا (قضى) هكذا بلا كلام قبلها أو بعدها ثم نحكم له أو عليه ؟

بالطبع لا ، إنما يعجز كل أحد أن يقولها في سياق كقول ربنا ﴿ **وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾ [2]

ثم هل ترى في كلمة (اشتعل) إعجازا إذا ما قال أي إنسان هذه الكلمة مفردة؟ ولو دخل عليك داخل وقال (الرأس) وسكت أترى في نطقه لهذه الكلمة على هذا النحو إعجازاً ؟

وإذا قرأت قول الحق سبحانه ﴿ **وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا** ﴾ [3] رأيت من الفصاحة والبلاغة والإبهار في المعنى ، وبراعة التصوير ، وجلال التعبير ما لا يملك المرء له إلا الانحناء إجلالا وتقديسا ، والترديد بالجنان واللسان تعالى الله منزل القرآن ، كرر النظر في الآية وانظر إلى المعنى الذي انقدح في نفسك واستقر في قلبك ، ثم فرق

---

(١) المعجزة الكبرى ص٩٥.

(٢) سورة الإسراء الآية ٢٣.

(٣) سورة مريم من الآية ٤ .

الكلمة كل لفظ على حدة ثم انظر إليه – أي إلى كل لفظ – على حدة نظرة مستقلة فإنك بلا شك غير واجد ذلك المعنى الذي استشعرته مع الجملة القرآنية ثم يزداد الجمال تألقا، ويتسامى الإبهار عاليا ، ويعظم الإعجاز إذا نظرت إلى الآية الكريمة في سياقها وسباقها ولحاقها.

وكون النظم القرآني هو دائرة فلك الإعجاز القرآني المتحدى به ومحور ارتكازه هو ما قرره الزمخشري أيضا في كشافه ،

يقول رحمه الله عند تفسيره لقول الله تعالى﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ... ﴾ (١) .

"والضمائر كلها راجعة إلى موسى ، ورجوع بعضها إليه ، وبعضها إلى التابوت فيه هجنة لما يؤدي إليه من تنافر اللفظ .

فإن قلت: المقذوف في البحر هو التابوت ، وكذلك الملقى إلى الساحل ؟

قلت : ما ضرك لو قلت: المقذوف والملقى هو موسى في جوف التابوت حتى لا تفرق الضمائر فيتنافر عليك النظم الذي هو أم إعجاز القرآن(٢) والقانون الذي وقع عليه التحدي ومراعاته أهم ما يجب على المفسر" ١هـ(٣)

ونقله الزركشى في برهانه واستحسنه حيث قال معقبا عليه :

انتهى ولا مزيد على حسنه . (٤)

والخلاصة :

مما سبق يتبين لنا أن اللفظ القرآني هو اللبنة الأولى في صرح النظم البديع المعجز ، وكل لفظ له معنى قائم بذاته ، وفيه إشعاع نوراني يتضافر مع جملته ويساعد بعضه بعضا في المعاني العامة .

---

(١) سورة طه الآية ٣٩ .

(٢) وفى اللسان : أم كل شيء أصله وعماده ، قال ابن دريد : كل شيء انضمت إليه أشياء فهو أم لها، وأم القوم رئيسهم ، وأم الكتاب فاتحته ، وقال الزجاج : أم الكتاب أصله ، الخ انظر مادة أمم ١٣٦/١.

(٣) الكشاف ٤٣٣/٢ .

(٤) البرهان ٣٦/٤ .

والألفاظ القرآنية بينها تآلف وانسجام ، وتوافق والتئام ، وارتباط والتحام ، والتآلف بينها بمعناه العام أوضح من ضوء الشمس في رابعة النهار فلا نفرة في الجروف، ولا نفرة في المخارج ، ولا نفرة في النغم ، ولا توجد كلمة نابية عن أختها ، وكما يقول الإمام عبدالقاهر في الدلائل :

كل كلمة لفق(١) مع أختها ، ولو حاولت أن تنزع كلمة لتصنع مكانها أخرى في معناها ما ائتلف السياق ، ولا انسجم الأسلوب . ١ هـ

وليس هناك تفاوت فنى في الأداء القرآني فهو في جميع سوره وآياته على درجة واحدة من البلاغة والفصاحة ، كما أن نظمه العجيب ، وتأليفه البديع لا يتفاوت ولا يتباين على ما ينصرف إليه من الوجوه كالقصص والأحكام والأمر والنهي والترغيب والترهيب الخ.

وكما يتسم القرآن بالتآخي في المعاني فإنه يتسم بالتآخي في المباني . ولنختم كلا منا في هذا المطلب بما قاله الإمام الباقلاني رحمه الله :

"فأما نهج القرآن ونظمه ، وتأليفه ورصفه ، فإن العقول تتيه في جهته ، وتحار في بحره ، وتضل دون وصفه ، ونحن نذكر لك في تفصيل هذا ما تتصور إعجازه كما تتصور الشمس ، وتتيقن تناهي بلاغته كما تتيقن الفجر ... واعلم أن هذا – أي الإعجاز وبيان أسراره – علم شريف المحل ، عظيم المكان ، قليل الطلاب ، ضعيف الأصحاب ، ليست له عشيرة تحميه ، ولا أهل عصمة تفطن لما فيه ، وهو أدق من السحر ، وأهول من البحر ، وأعجب من الشعر ، وكيف لا يكون كذلك وأنت تحسب أن وضع الصبح في موضع الفجر يحسن في كل كلام إلا أن يكون شعراً أو سجعاً ، وليس كذلك ، فإن إحدى اللفظتين قد تنفر في موضع وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الأخرى ، بل تتمكن فيه وتضرب بجرانها ، وتراها في مظانها ، وتجدها فيه غير منازعة إلى أوطانها ، وتجد الأخرى – لو وضعت موضعها – في محل نفار، ومرمى شراد ونابية عن استقرار . اهـ (٢)

---

(١) في أساس البلاغة : لفقت بين ثوبين ، ولفقت أحدهما بالآخر إذا لاءمت بينهما بالخياطة ، وهما لفقان ما داما متضامنين ، ومن المجاز: تلافق القوم تلاءمت أحوالهم ، وهذا لفق فلان ، وهما لفقان ، ص ٤١٢ مادة لفق .

(٢) إعجاز القرآن للقاضي أبي بكر الباقلاني ص ٢٢٧.

المطلب الثاني

نماذج من خلاف مقتضى الظاهر في الاسم الظاهر

المثال الأول : طعام واحد بمكان طعامين

قال الله تعالى ﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا....** ﴾ الآية البقرة ٦١

في ظلال الآية الكريمة :

يبين الله تعالى في هذه الآية دأب اليهود وعادتهم في الإعنات والتمرد ، والحرص والطمع ، وشهوة التملك ، وضعف اليقين بما عند الله تعالى ، وسيطرة المادة عليهم .

وقد بلغ من تمردهم وإعناتهم لنبي الله موسى عليه السلام أن قالوا – أي المعاصرون له – لن نصبر على أن يكون طعامنا الذي لا يتغير أبداً هو المن والسلوى، وانظر معي إلى قبح عبارتهم وسوء أدبهم في قولهم ﴿ **فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ** ﴾ وكأنه رب موسى دونهم ، أي : اطلب لنا من ربك أن يخرج لنا من الأرض البقل[1] والقثاء والحنطة أو الثوم على خلاف بين العلماء والعدس والبصل.

يقول العلامة الألوسي : إنهم كفروا نعمة إنزال الطعام اللذيذ عليهم ، وهم في التيه من غير كد وتعب حيث سألوا. ، وسؤالهم غيره يدل على كراهيتهم إياه. اهـ بتصرف [2]

والمعنى كما يقول صاحب التفسير الوسيط :

واذكروا يا بني إسرائيل بعد أن أسبغنا عليكم نعمنا ما كان من سوء اختيار أسلافكم ، وفساد أذواقهم ، وإعناتهم لنبيهم موسى عليه السلام حيث قالوا له ببطر وسوء أدب : لن نصبر على طعام المن والسلوى في كل وقت ، فسل لنا ربك أن يخرج مما تنبته الأرض من خضرها وفاكهتها وحنطتها وعدسها وبصلها ، لأن نفوسنا قد عافت المن والسلوى ، فوبخهم نبيهم موسى – عليه السلام بقوله : أتختارون الذي

---

(١) البقل : هو النبات الرطب الطازج كالنعناع والكرفس والكرات والجرجير ونحو ذلك .

(٢) روح المعاني ٢٧٣/١ .

هو أقل فائدة وأدنى لذة ، وتتركون المن والسلوى وهو خير مما تطلبون لذة وفائدة ؟؟ انزلوا إلى مصر من الأمصار فإنكم تجدون ما تطلبون من البقول وأشباهها.

وأحاطت ببني إسرائيل المهانة والاستكانة كما تحيط القبة بمن ضربت عليه ، وحق عليهم غضب الله ، وذلك كله بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وعصيانهم الدائم واعتدائهم المتكرر . ١ هـ بتصرف يسير [1]

وفى تعبيرهم عن عدم رغبتهم في تناول المن والسلوى بحرف (لن) الذي يفيد تأكيد النفي في المستقبل سوء أدب وجفوة في الخطاب ، إذ أنه يشعر بشدة ضجرهم، وبلوغ الكراهية لهذا الطعام منتهاها.

وطلبهم الدعاء من موسى عليه السلام إماتهكم منهم ، وإما لثقتهم في أنه أقرب منهم إلى الله تعالى ، ودعاؤه مجاب إذا دعا لهم ولذا جاء الفعل (يخرج) مجزوما، كأن إخراج ما تنبت الأرض متوقف على مجرد دعاء موسى . ولكون طلبهم لا يخلو من تعنت فقد وبخهم عليه موسى بقوله ﴿ **أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ** ﴾.

فإن قلت : ما المراد بقوله (مصراً) في الآية ؟

قلت : المراد أي مصر من الأمصار ، لأن بني إسرائيل حينئذ كانوا في البوادي ، وما طلبوه لا يكون إلا في القرى والأمصار .

وهذا هو الذي اختاره ابن جرير الطبرى[2] ، وابن كثير[3] وأبو حيان[4] وغيرهم ، فقوله (مصراً) أي : مكانا غير معين. وفى زاد المسير: قال أبو العالية والضحاك وابن عباس أراد مصر فرعون ، واختاره الفراء ، واحتج بقراءة عبدالله. [5]

والسؤال هنا :

---

(١) التفسير الوسيط ١٨٧/١.

(٢) تفسير الطبرى ٣١٤/١ ، واختاره الأخفش في معاني القرآن ٢٧٣/١ .

(٣) تفسير ابن كثير ١٠٣/١.

(٤) البحر المحيط ٢٢٣/١ .

(٥) تفسير زاد المسير ٨٩/١.

كيف قال القرآن هنا﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ ولم يقل : لن نصبر على طعامين ؟ وهما في واقع الحال طعامان هما المن والسلوى كما صرح به القرآن في أكثر من موضع ؟ (١)

قال العلامة المحقق الألوسي :

ووصف الطعام بواحد ، وإن كانا طعامين (المن والسلوى) اللذين رزقوهما في التيه ، إما باعتبار كونه على نهج واحد ، كما يقال : طعام مائدة الأمير واحد – ولو كان ألوانا شتى – بمعنى أنه لا يتبدل ولا يختلف بحسب الأوقات .

أو : باعتبار كونه ضرباً واحداً ، لأن المن والسلوى هن طعام أهل التلذذ والترف ، وكأن القوم كانوا فلاَّحة ، فما أرادوا إلا ما ألفوه .

وقيل : إنهم كانوا يطبخونهما معا فيصير طعاماً واحداً . ١ هـ

هذه هي الأجوبة التي ارتضاها العلامة ، وهناك أجوبة أخرى ذكرها وضعفها. (٢)

ألا قاتل الله الجحود والطمع ، إنهما ما خامرا قلب امرئ إلا سلباه قول الصدق إذا قال ، والإقرار بالفضل إذا ذكر به.

ألا يمكن أن تكون الآية – بهذا الأسلوب – تلمح إلينا أن القوم من غلبة الإنكار على طبعهم ، والاعتساف في رأيهم ، كانوا يستقلون الكثير ولا يقولون الحق ، ولا يخبرون بما هو الواقع ، ويتلاعبون بالألفاظ ، فقالوا (لن نصبر على طعام واحد) مع أن طعامهم نوعان .

أو : أنهم أرادوا بالواحد الثابت على حالة واحدة كما ذكر الألوسي آنفا .

قال جار الله :

فإن قلت : هما طعامان فما لهم قالوا : (على طعام واحد) ؟

قلت : أرادوا بالواحد مالا يختلف ، ولا يتبدل ، ولو كان على مائدة الرجل ألوان عديدة يداوم عليها كل يوم لا يبدلها . قيل : لا يأكل فلان إلا طعاماً واحداً ، يراد

---

(١) كقوله (وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى...) البقرة ٥٧.

(٢) روح المعاني ٢٧٣/١ .

بالوحدة نفى التبدل والاختلاف ، ويجوز أن يريدوا أنهما ضرب واحد لأنهما معا من طعام أهل التلذذ والترف ، ونحن قوم فلاحة أهل زراعات فما نريد إلا ما ألفناه . ١هـ (١)

وهكذا فما قاله صاحب روح المعاني هو عين ما قاله من قبل صاحب الكشاف، وحول هذا المعنى دار المفسرون. (٢)

وزاد الخطيب الشربيني على ما سبق احتمالا آخر مبنيا على اللغة فقال :

أو : لأن العرب تعبر عن الاثنين بلفظ الواحد ، كما تعبر عن الواحد بلفظ الاثنين كقوله تعالى﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ (٣) وإنما يخرج من الملح دون العذب . (١)

---

(١) الكشاف ٧٢/١ .

(٢) انظر الأنموذج الجليل من غرائب أي التنزيل للإمام زين الدين الرازي ص ١٤ وانظر الفتوحات الإلهية ٥٨/١ .

وتفسير القرطبي ٤٢٢/١ – محاسن التأويل للقاسمي ٣٤٦/١ .

(٣) الرحمن ٢٢ وهذه الآية ثنى فيها الضمير وهو يعود وعلى أحد المذكورين لا عليهما ، وكما قال السمين : وحذف المضاف كثير شائع والتقدير من أحدهما وقيل : يخرج من أحدهما اللؤلؤ ومن الآخر المرجان ، قيل : بل يخرجان منهما جميعاً أو : يخرجان من الملح في الموضع الذي فيه العذب وهذا مشاهد عند الغواصين وهو قول الجمهور فناسب لذلك إسناده إليهما ١ هـ بتصرف يسير من حاشية الجمل ٢٥٧/٤ قلت : ولابد من مراعاة السباق فقد ذكر الله في الآية السابقة عليها (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزج لا يبغيان) (١٩-٢٠) ومادام قد التقيا في نظر الرائي فقد أصبحا كالشيء الواحد لأن البرزخ بطبيعة الحال غير مرئي وإذن ما يخرج من أحدهما فكأنه خارج منهما . والله أعلم بأسرار كتابه .

وقد ذكر الإمام ابن قتيبة الآية ضمن باب (مخالفة ظاهر اللفظ معناه) تحت عنوان : ومنه أن يجتمع شيئان ولأحدهما فعل فيجعل الفعل لهما. ولم يعلق بشيء ، ولم يبين لنا وجه الحكمة في ذلك، انظر تأويل المشكل ص٢٨٧ وقد ذكرها الإمام الزركشي أيضا بلا تعليق ولا تعقيب أو توضيح ، ذكرها تحت عنوان فرعي : قد يثني الضمير ويعود على أحد المذكورين. البرهان ٣٢/٤ وما نقله أبو حيان عن أبي عبيدة من قوله : إنما يخرج من الملح لكنه قال منهما تجوزاً. غير مقنع للعقل ولا شاف للنفس ، ثم نقل عن الرماني : أن العذب فيها كاللقاح للملح فهو كما

وهكذا كما ترى فإن مخالفة مقتضى الظاهر أفادت معنى لم يكن ليوجد لو قال (على طعامين) .

هل سؤال بني إسرائيل هذا من قبيل المعصية أولاً ؟؟

ذهب الإمام الفخر إلى كونه ليس معصية ، إذ لو كان معصية لما أجابهم إلى طلبهم ، فالإجابة إلى المعصية معصية ، ثم ذكر رحمه الله أن أكثر المفسرين على كونه معصية . ١ هـ [٢]

ورجح الألوسي كونه معصية ، وقال : فالآية في الأسلوب مثل قوله﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [٣] .

قلت : ولو سلمنا بكون سؤالهم ليس معصية ، بل طلبا مباحا من قبيل المباحات والتمسنا لهم الأعذار بما لا يخلو من تكلف فإننا لا يمكن إلا أن نقول ومع هذا فإن طلبهم بهذا الأسلوب يدل على سواء أدبهم مع نبيهم ، وقبح عبارتهم في طلبهم – كما أسلفنا لك القول عند بيان المعنى العام للآية – ويدل على صلفهم ، وعتوهم وتمروهم على كل شيء.

والناظر لسباق آيتنا ولحقاها ، وسياقها العام يرى أن كل ما عدد من قبيل أفاعيلهم وخطاياهم ، وهو الذي أكده صاحب المنار طيب الله مرقده حيث قال : والذى

يقال: الولد يخرج من الذكر والأنثى ، وهذا أيضا يحتاج إلى دليل فلو ثبت هذا لكانت الحكمة واضحة وإلا فلا .

ورحم الله الزمخشري حيث قال في بيان هذا. قلت : لما التقيا وصارا كالشيء الواحد جاز أن يقال: يخرجان منهما كما يقال : يخرجان من البحر ، ولا يخرجان من جميع البحر ولكن من بعضه، وتقول : خرجت من البلد وإنما خرجت من محلة من محاله بل من دار واحدة من دوره ١هت واستصوب هذا القول ابن المنير في الانتصاف .

انظر الكشاف ٥١/٤ والهامش ، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

(١) تفسير الخطيب ٧٤/١ .

(٢) تفسير الفخر الرازي ١٠٦/٣ .

(٣) البقرة ٨٥ وانظر روح المعاني ٢٧٣/١ .

يقع عليه الفهم من الآية أن النزق[١] قد استولى على طباعهم ، وملك البطر أهواءهم حتى كانوا يستخفون بذلك الأمر العظيم الذي هيأهم الله له ... الخ . [٢]

المثال الثاني : أماني بمكان أمنية

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ البقرة الآية ١١١

في ظلال الآية الكريمة :

ذكر الله تعالى في هذه الآية حالين من أحوال اليهود

أولاهما : تضليل من عداهم ، وادعاؤهم أن الحق لا يعدوهم ، وأن النبوة مقصورة عليهم .

ثانيتهما : تضليل اليهود للنصارى ، وتضليل النصارى لليهود ، مع أن كتاب اليهود أصل لكتاب النصارى ، وكتاب النصارى متمم لكتاب اليهود [٣].

إن الآية تعرض علينا لونا من تخليط اليهود ، وإلقاء الشبه في قلوب المسلمين، ثم إن كل فريق من الفريقين يزعم أنه لن يدخل الجنة إلا هو – وهذا زعمهم إلى يومنا هذا فهم يكفر بعضهم بعضا – تلك أمانيهم التي لا يملكون عليها دليلا ، ولا تقوم لهم بها حجة .

لقد زينت الأثرة وضلال الرأي لأهل الكتاب من اليهود والنصارى أن يجترئوا على الله تعالى ، ويقولوا عليه سبحانه غير الحق ، فزعموا أنه جعل الجنة لهم من دون الناس لا يدخلها عليهم داخل ، ولا يزاحمهم فيها مزاحم ، وتدل الآية بظاهرها على أن ما كان يتمناه هؤلاء وهؤلاء هو الاستئثار بالجنة ، وتلك كما لا يخفى أمنية واحدة.

والسؤال :

ما الحكمة من عدم توافق ظاهر الأسلوب في الآية مع واقع الحال ، حيث جاءت الآية بصيغة الجمع (أمانيهم) مع أن الذي تمنوه هو أنه لن يدخل الجنة إلاهم ؟

---

(١) النزق : خفة في كل أمر ، وعجلة في جهل وحمق ، والنزق : الطيش ، انظر اللسان مادة : نزق ٤٣٩٨/٦.

(٢) تفسير المنار ٣٣٠/١ .

(٣) بتصرف يسير من تفسير المراغي ١٦٣/١ .

فهل يمكن أن نقول في تلمس وجه الحكمة إجابة على هذا السؤال أن التعبير بالجمع هنا دون الإفراد لكونها أمنية كبيرة عظيمة يتفرع منها أماني أخرى غير مصرح بها ، فتمنى اليهود دخولهم الجنة وحدهم يتضمن أمنية نجاتهم من النار ، ويتضمن أمنية دخول غيرهم النار ، وكذا النصارى يتمنون دخولهم الجنة ، ونجاتهم من العذاب ، ودخول غيرهم العذاب فهي في الحقيقة أمان متعددة أو : أن لفظة أماني في قوله (تلك أمانيهم) تشمل كل ما سبق لهم من أمان في الآيات السابقة على آيتنا هذه، مثل تمنيهم ألا ينزل الله خيراً على المسلمين ﴿ **مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ (١) ، ومثل تمنيهم كفركم وارتدادكم عن دينكم ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ**﴾ (٢)

لله در جار الله الزمخشري حيث قال :

فإن قلت : لم قيل (تلك أمانيهم) وقولهم : لن يدخل الجنة أمنية واحدة ؟ قلت: أشير بها إلى الأماني المذكورة ، وهو أمنيتهم أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم، وأمنيتهم أن يردوهم كفاراً ، وأمنيتهم ألا يدخل الجنة غيرهم أي : تلك الأماني الباطلة أمانيهم .

ثم أردف جار الله هذا القول بقول آخر فقال :

أو : أريد أمثال تلك الأمنية أمانيهم على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، يريد أن أمانيهم جميعاً في البطلان مثل أمنيتهم هذه ، والأمنية أفعوله من التمني، مثل الأضحوكة والأعجوبة . ١ هـ

لكن يعكر على هذا الجواب ما اعترض به عليه الناصر في الانتصاف حيث قال : يبعد هذا الجواب قوله تعالى عقيب الآية ﴿ **بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ (٣) فإن البرهان المطلوب منهم هاهنا إنما هو على صحة دعواهم أن الجنة لا يدخلها غيرهم ، ويحقق هذا قوله ﴿ **بَلَى**

(١) سورة البقرة الآية ١٠٥.
(٢) سورة البقرة الآية ١٠٩ .
(٣) سورة البقرة الآية ١١٢ .

مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ....﴾ فإنما يعني الجنة ونعيمها رداً عليهم في نفي غيرهم عن دخولها ، ففي هذا دليل بين على أن الأماني المشار إليها ليس إلا ما طولبوا بإقامة البرهان على صحته ، وهو أمنية واحدة . والله أعلم.

والجواب القريب : أنهم لشدة تمنيهم لهذه الأمنية ومعاودتهم لها ، وتأكدها في نفوسهم جمعت ، ليفيد جمعها أنها متأكدة في قلوبهم ، بالغة منهم كل مبلغ ، والجمع يفيد ذلك وإن كان مؤداه وحداً .

ونظيره قولهم : معيّ جياع . فجمعوا الصفة ، ومؤداها واحد لأن موصوفها واحد ، تأكيداً لثبوتها وتمكنها. ، وهذا المعنى أحد ما روى في قوله تعالى (إن هؤلاء لشرذمة قليلون) (١) فإنه جمع قليلاً ، وقد كان الأصل إفراده فيقال : قليلة كقوله تعالى ﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً**﴾ (٢) لولا ما قصد إليه من تأكيد معنى القلة بجمعها.

ووجه إفادة الجمع في مثل هذا التأكيد : أن الجمع يفيد بوضعه الزيادة في الآحاد ، فنقل إلى تأكيد الواحد ، وإبانة زيادته على نظرائه نقلا مجازيا بديعاً ، فتدبر هذا الفصل فإنه من نفائس صناعة البيان . والله الموفق ١ هـ (٣)

وهذا كلام في غاية النفاسة ، ولا مزيد عليه ، لأن ما صدر منهم من تمنيهم عدم نزول خير على المسلمين ، وتمنيهم ارتداد المسلمين كفاراً ليس شيئاً من ذلك مما يطلب عليه البرهان ، ولا مما يحتمل الصدق والكذب ، أما دعواهم أنهم لن يدخل الجنة غيرهم فهي التي تحتاج إلى برهان.

والدعاوي ما لم يقيموا عليها ∴ بينات أصحابها أدعياء

فإن قلت : لم أشار بأداة الإشارة الدالة على البعد (تلك) مع أن المشار إليه قريب؟

(١) سورة الشعراء الآية ٥٤ وسيأتي الحديث عن هذه الآية بعد قليل – إن شاء الله – بشيء من التفصيل .
(٢) سورة البقرة الآية ٢٤٩.
(٣) الكشاف ١/٨٨ – ٨٩ والهامش .

قلت : إشارة إلى بعد هذه الأمنية في نفوسهم وتأصلها في قلوبهم ، وحرصهم الشديد على إدراكها ، أو : إشارة إلى بعد حصولها لهم ، فليسوا أهلا لها ، وليست معدة لهم . والله أعلم .

ويمكن أن يقال في (أمانيهم) إشارة إلى أمنية كل واحد من الفريقين فهم كثر، قال أبو السعود العمادى – رحمه الله – :

والجمع باعتبار صدوره عن الجميع ، وقيل : فيه حذف مضاف أي : أمثال تلك الأمنية أمانيهم . ١ هـ [١]

وذكر البيضاوى أن الجمع باعتبار الأماني المذكورة – أي في الآيات – أو : على حذف مضاف. [٢]

المثال الثالث : القبلة بمكان القبلتين

قال تعالى : ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ البقرة الآية ١٤٥.

في ظلال الآية :

الآية في سياق الآيات التي تتحدث عن تحويل القبلة ، ومن المعلوم أن اليهود لهم قبلتهم حيث كانوا يستقبلون في صلاتهم بيت المقدس ، والنصارى لهم قبلتهم حيث كانوا يستقبلون مطلع الشمس ، فجاءت هذه الآية لتكشف عن خبيئة نفوس هؤلاء وهؤلاء وأنهم لفرط عنادهم وشدة جحودهم لا تجدى معهم الآيات فالآية الكريمة تضع النقط على الحروف – كما يقولون – فكما أيأست النبي ﷺ من أتباعهم قبلته أيأستهم كذلك من اتباعه ﷺ قبلتهم .

أي : وتالله لئن جئتهم بكل آية على نبوتك وكل حجة على صدقك ما تبعوا قبلتك فضلا عن ملتك لما جبلوا عليه من العناد واللجاج ، ولما اتصفوا به من المكابرة والإباء ، فلا يحزنك يا رسول الله قولهم ولا إعراضهم ، ومجئ الآيات تلو الآيات لا تصرفهم عما هم عليه فهم قوم مقلدون لا نظر لهم ولا استدلال عندهم ، وقد جمد كل

---

(١) تفسير أبي السعود ١٨٣/١ .

(٢) تفسير البيضاوى ٢٠٦/١ .

منهم بالتقليد على ما هو عليه (وما بعضهم بتابع قبلة بعض) لتمسكهم الزائف وحرصهم الكاذب على استقلال ذاتيتهم الدينية وما علموا أن اللاحق ينسخ السابق ، وأن الإسلام هو دين الله الذي ختم به الرسالات ، ورضيه لجميع العباد.

قال القرطبي : (وما أنت بتابع قبلتهم) لفظ خبر ويتضمن الأمر [١] ، أي : فلا تركن إلى شيء من ذلك ، ثم أخبر تعالى أن اليهود ليست متبعة قبلة النصارى، ولا النصارى متبعة قبلة اليهود .

عن السدى وابن زيد : هذا إعلام باختلافهم ، وتدابرهم وضلالهم [٢].

وقال صاحب الكشاف : قوله تعالى ﴿ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ حسم لأطماعهم إذ كانوا ماجوا في ذلك وقالوا : لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجوا أن يكون صاحبنا الذي ننتظره ، وطمعوا في رجوعه إلى قبلتهم ﴿ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ يعني : أنهم مع اتفاقهم على مخالفتك مختلفون في شأن القبلة ، لا يرجى أتفاقهم كما لا ترجى موافقتهم لك، وذلك أن اليهود تستقبل بيت المقدس ، والنصارى مطلع الشمس. ١ هـ [٣]

والسؤال : ما سر إيثار إفراد القبلة في قوله ﴿ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ وواقع الحال أن لليهود قبلة والنصارى قبلة ؟؟

وقد افترض هذا السؤال جار الله الزمخشري حيث قال :

فإن قلت : كيف قال ﴿ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ ولهم قبلتان ، لليهود قبلة وللنصارى قبلة ؟

قلت : كلتا القبلتين باطلة مخالفة لقبلة الحق ، فكانتا بحكم الاتحاد في البطلان قبلة واحدة . ١ هـ [٤]

---

(١) كذا قال ، ولعل الصواب : الطلب ، فكل من الأمر والنهي طلب.

(٢) تفسير القرطبي ١٦٢/٢ .

(٣) تفسير الكشاف ١٠١/١ .

(٤) المرجع السابق ونقل عبارته سؤالاً وجواباً الإمام زين الدين الرازي في الأنموذج الجليل من غرائب أي التنزيل ص ١٩.

فكأن القرآن هنا ألغى التعدد ، ولم يعتبره لكون هؤلاء وهؤلاء في عدم موافقة الحق الذي جاء به رسول ﷺ سواء ، فهما معا يشكلان قوة واحدة ، ووحدة يقوى بعضها بعضا في العداء للإسلام ، فلا تفاوت بنيهما ولا خلاف ، وإذن فالقبلتان في الحكم والتقدير كشئ واحد. وفى الآية إشارة إلى أن هؤلاء وإن اختلفوا فيما بنيهم، وتسموا بأسماء مختلفة إلا أنهم يلتقون ويتحدون عند العداء للإسلام والمسلمين .

ياليت قومي يعلمون أهل الباطل رغم اختلافهم فيما بينهم إلا أنهم يتحدون أمام ما يعتبرونه عدواً لهم ، وأمة الحق يختلفون فيما بنيهم اختلافا يصل إلى درجة العداء وبالتالي لا يستطيعون مجابهة أهل الباطل.

وللقاضي أبى السعود عبارة دقيقة ، يقول رحمه الله :

وإفراد قبلتهم مع تعددها باعتبار اتحادهما في البطلان ومخالفة الحق ، ولئلا يتوهم أن مدار النفي هو التعدد. ١ هـ . (١)

وعبارة القاضي البيضاوي قريبة من هذا المعنى حيث قال :

وقبلتهم وإن تعددت لكنها متحدة بالبطلان ومخالفة الحق . ١ هـ (٢)

وبنحو ذلك قال النسفى في مدارك التنزيل . (٣)

فائدة : قال القاسمي في تفسيره :

قال الراغب : إن قيل : كيف أعلم بأنهم لا يتبعون قبلته وقد آمن منهم فريق؟

قيل : قال بعضهم : إن هذا حكم على الكل دون الأبعاض ، وهذا صحيح ، بدلالة أنك لو قلت : ما آمنوا ولكن آمن بعضهم ، لم يكن منافياً ، وقيل : عنى به أقوام مخصوصون.

وقال : في قوله ﴿ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ إشارة إلى أن من عرف الله حق معرفته ، فمن المحال أن يرتد ، ولذا قيل : ما رجع من رجع إلا من الطريق ، أي: ما أخل بالإيمان إلا من لم يصل إليه حق الوصول . الخ . (٤)

---

(١) إرشاد العقل السليم ٢١٦/١ .

(٢) تفسير البيضاوى ٢٣٥/١ .

(٣) مدارك التنزيل وحقائق التأويل ٧٧/١ .

(٤) محاسن التأويل ٤٧١/١ ,

المثال الرابع : عبد بمكان عبيد وفرد بمكان أفراد

قال تعالى : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ مريم ٩٣ – ٩٥ .

في ظلال الآيات :

يبين الله سبحانه أن جميع المخلوقات خاضعة لقدرته ، مستسلمة لإرادته ، فذكر ذلك بأسلوب الحصر الذي لا يفلت منه شيء كائنا من كان ، فالكل يأتي يوم القيامة مقراً لله بالعبودية ، خاضعا له تعالى خضوع العبد لسيده .

لقد أحصاهم الله تعالى ، وأحاط بهم ، فلا يخرج أحد منهم عن علمه ، وظواهرهم وبواطنهم بالنسبة لعلمه تعالى سواء ، وعد أشخاصهم ، وأنفاسهم ، وأقوالهم، وأفعالهم ، وسائر أحوالهم عدهم عداً ليس له شبيه ولا نظير.

وكل واحد من خلقه يأتيه يوم القيامة منفرداً بلا مال ولا جاه ، ولا عشيرة، ولا حسب ، ولا نسب ، ولا سلطان ، ولا معين ، ولا نصير ، كما قال ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (١) وكما قال ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ (٢) أذلاء صاغرين ، لا خدم يصحبهم ، ولا حشم يلحقهم ، كل بنفسه منشغل ، وعن غيره منفرد والسؤال : لفظ عبد في الآية مفرد ، والمقام بحسب مقتضى الظاهر للجمع لا للمفرد، فالآيات – كما لا يخفى – تتظاهر على تصوير حال الناس كافة يوم يعرضون على ربهم. فما الحكمة من مجئ الآية على خلاف مقتضى الظاهر ؟

نعم إن ما جاء على أصله لا يسأل عن علته كما هو مقرر ، ولكن الذي يسترعى الانتباه حقا ، ويثير السؤال إلحاحا هو التعبير بلفظ يخالف ما يقتضيه ظاهر التعبير ، الأمر الذي لا يمكن للمتدبر للذكر الحكيم أن يمر عليه مر الكرام ، ولا أن يضرب صفحا عنه .

أقول : رويداً رويداً إن مخالفة الظاهر هنا هي البلاغة في أسمى معانيها ، والفصاحة في أبهى حللها ، فالمقام هنا مختلف ، إذ ليس المقام هنا للكثرة الكاثرة التي

---

(١) سورة الأنعام الآية ٩٤ .

(٢) سورة النمل الآية ٨٧ .

لا يعلم عددها إلا الخالق جل شأنه ، وإنما المقام مقام عرض وحساب ، وجزاء ، فحال الحشد في الآخرة يختلف عن حال أي حشد في الدنيا ، فالحال غير الحال ، والمقام غير المقام.

وكأن الآية – والله أعلم – تشير إلى كل ذي عقل بأن السؤال يكون للفرد لا للجماعة ، بمعنى أن كل إنسان يمثل بين يدى الله وحده بمفرده مجرداً مما كان يتعزز به في الدنيا.

ويمكن أن نقول أيضا: إن خشوع الخلائق أجمعين ، وفقدهم الحول والطول يومئذ ثم هذه الهيبة التي تملأ جوانحهم ، وتقطع قلوبهم ، ترقبا لمآلهم وماذ يكون ، كل هذا وغيره يجعل الجميع بين يدي الله مقهورين ، متساويين ، حتى كأنهم فرد واحد، تتكرر ذاته ، وتتوحد ملامحه ومخاوفه ، لقد ذابت الفوارق وولت ، فلا تشبث ساعتئذ بقومية ، أو عصبية ، أو بجنس ، أو بلون ، أو بمكانة اجتماعية هذا من علية القوم وهذا من أراذلهم؟؟

لا . لا . فالمقام جد مختلف ، خرست الألسنة ، وخشعت الأبصار ووجلت القلوب ، والنفوس متأرجحة بين بين ، لا تدرى بم يحكم أحكم الحاكمين ؟ لها أو عليها؟؟

فالأشخاص وإن كثروا حقاً ، وبلغوا من الكثرة حداً لا يعلمه إلا العليم الخبير إلا أن الملامح تشابهت ، والخلجات والمشاعر قد توافقت كأن الكل فرد واحد. والله أعلم بمراده.

قال ابن عطيه : (عبداً) حال .. وقوله (فرداً) يتضمن معنى قلة النصر والحول، والقوة ، لا مجير له مما يريد الله به . ١ هـ. (١)

وفي القرطبي توجيه لإفراد (آتية) ومقتضى الظاهر : آتوه أي : بالجمع ، قال: الإفراد مراعاة للفظ (كل) . ١ هـ تبصرف وتوضيح(٢)

---

(١) المحرر الوجيز ٣٤/٤

(٢) تفسير القرطبي ١٦٠/١١ .

وفى زاد المسير : توجيه لمجئ (أحصاهم) ، (عدهم) جمعا فأفاد بما معناه أن الإفراد في لفظ ، والجمع في آخر . يكون مراعاة للفظ والمعنى ١ هـ بتصرف(١)

وعبارة النسفى أوضح حيث قال :

ووحد (آتى) و (آتيه) حملا على لفظ (كل) . (٢)

وعلق القاضي أبو السعود على إيثار التعبير بصيغة اسم الفاعل في قوله (آتيه) دون المضارع : يأتيه فقال :

وفى صيغة الفاعل من الدلالة على إتيانهم كذلك – أي : منفرداً من الاتباع والأنصار – ما ليس في صيغة المضارع لو قيل : يأتيه . ١هـ (٣)

أرأيت معي الحكمة من مجئ (آتى) ، (عبداً) ، (آتيه) ، (فرداً) كلها بلفظ المفرد، إنها لفتة للإنسان ليتذكر هذه الوحدة أمام الواحد الأحد الفرد الصمد ، وليتذكر تلك المسؤولية الفردية ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ (٤) ، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (٥) ثم تذكره بشدة الرقابة الإلهية للكل على حدة ، فعين الله على كل فرد باطنه وظاهره ، والجميع محصى لله المحصى لكل شيء ، فلا تشغله الكثرة عن العلم، يعلم مكاييل البحار ، وعدد قطرات الأمطار ، وعدد أوراق الأشجار ، وعدد ذرات الجبال، وعدد من يظلم عليه الليل ويشرق عليه النهار، وكيف لايعلم وهو الذي خلق.والله أعلم.

فائدة :

قال زين الدين الرازي في الأنموذج الجليل من غرائب أي التنزيل :

فإن قيل : كيف قال تعالى﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ والإحصاء العد على ما نقله الجوهري ، أو : الحصر على ما نقله بعض أئمة التفسير ؟ فإن كان الإحصاء العد فهو تكرار ، وإن كان الحصر فذكر الإحصاء مغن عن ذكر العد ، لأن الحصر لا يكون إلا بعد معرفة العدد ؟؟

---

(١) زاد المسير ٢٦٦/٥ .

(٢) مدارك التنزيل ٤٧/٣ .

(٣) إرشاد العقل السليم ٢٦١/٤.

(٤) سورة الطور الآية ٢١ .

(٥) سورة المدثر الآية ٣٨ .

قلنا : الإحصاء قد جاء بمعنى العلم أيضا ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ (١)، قال الشاعر :

وكن للذي لم تحصه متعلما ∴ وأما الذي أحصيت منه فعلم

وهو المراد هنا ، فيصير المعنى : لقد علمهم أي علم أفعالهم وأقوالهم وكل ما يتعلق بذواتهم ، وصفاتهم ، وعددهم ، فلا تكرار ولا استغناء عن ذكر العد . اهـ(٢)

وقد نقل العلامة الجمل في حاشيته نحو هذا عن الكرخي . (٣)

والإحصاء على ما في المفردات : التحصيل بالعدد ، والإحاطة (٤)

وعلى ذلك نقول : أي : لقد حصرهم وأحاط بهم إحاطة تامة بالعدد الدقيق الذي لا يتمكن أحد معه من التفلت من قبضته وهيمنته جل شأنه .

المثال الخامس : المرضعة بمكان المرضع

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ *يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ الحج ١ – ٢ .

في ظلال الآيات :

نداء إلهى كريم للناس كل الناس – وإن قال كثير من المفسرين : المراد بهم أهل مكة ، فالقول بالعموم أليق وأنسب – وأمر لهم باتقاءه تعالى وتجنب أسباب عقابه، وذلك بفعل المأمورات واجتناب المنهيات ، وهكذا ترى أن الآية الكريمة صدرت بنداء لجميع الناس وهو خطاب كما يقول القاضي أبو السعود:

يعم حكمه المكلفين عند النزول ، ومن سينتظم في سلكهم بعد من الموجودين القاصرين عن رتبة التكليف ، والحادثين بعد ذلك إلى يوم القيامة ، وإن كان خطاب

(١) سورة الجن الآية ٢٨ .

(٢) من غرائب أي التنزيل ص ٣٠٠ .

(٣) حاشية الجمل على الجلالين ٣/٨٠ .

(٤) المفردات ص ١٢٠.

المشافهة مختصا بالفريق الأول ، ولفظ (الناس) ينتظم الذكور والإناث حقيقة ، وأما صيغة جمع المذكر فواردة على نهج التغليب لعدم تناولها للإناث حقيقة إلا عند الحنابلة.

والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية والتربية ، مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لتأييد الأمر ، وتأكيد إيجاب الامتثال به ترهيبا وترغيبا ، فكأنه قال عز شأنه : احذروا عقوبة مالك أموركم ومربيكم . اهـ(١)

والعلة واضحة وهي ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ والمراد بها : الزلزلة العامة التي تكون في آخر الحياة الدنيا ، ويتبعها باقى العلامات الكبرى للساعة.

ولكون هذه الزلزلة من أشراط الساعة أضيفت إليها ، وعليه فالإسناد على سبيل المجاز العقلي . (٢)

وقد سمى الله تعالى سورة من سور القرآن الكريم باسمها وهي سورة الزلزلة (يوم ترونها) الضمير يرجع للساعة ، أو للزلزلة ، ولا تنافى بين القولين بل بينهما تلازم لا يخفى.

وعزا القرطبي القول بعودتها للزلزلة للجمهور ، وقال : ويقوي هذا قوله عز وجل ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ والرضاع والحمل إنما هو في الدنيا.

وقالت فرقة : الزلزلة في يوم القيامة واحتجوا بحديث عمران بن حصين.

روى الترمذي عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ لما نزلت﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ... ﴾ إلى قوله﴿ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ قال : أنزلت عليه الآية هذه وهو في سفر فقال :"أتدرون أي يوم ذلك" ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم قال: "ذاك يوم يقول الله لآدم ابعث بعث النار ، قال : يا رب وما بعث النار ؟ قال : تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة" فأنشأ المسلمون يبكون . فقال رسول الله ﷺ : "قاربوا وسددوا فإنه لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية ، قال : فيؤخذ العدد من الجاهلية فإن تمت وإلا كملت من المنافقين ، وما مثلكم والأمم إلا كمثل الرقمة في

(١) إرشاد العقل السليم ٤/٣٦٤ .

(٢) المجاز العقلي هو : مجاز في التركيب ، مجاز في الإسناد ، وعلاقته الملابسة وذلك أن يسند الفعل أو شبهه إلى غير ما هو له أصالة لملابسته ١ هـ الاتقان ٢/٤٧ .

ذراع الدابة ، أو كالشامة في جنب البعير ، ثم قال : إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبروا ، ثم قال : إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة. فكبروا ، ثم قال : إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة. فكبروا قال : لا أدري قال الثلثين أم لا" قال : هذا حديث حسن صحيح[١].

وفى صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : "يقول الله تعالى يا آدم . فيقول : لبيك وسعديك والخير في يديك ، قال : يقول : أخرج بعث النار. قال : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، قال: فذاك حين يشيب الصغير ، ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ ، قال : فاشتد ذلك عليهم ، قالوا : يا رسول الله أينا ذلك الرجل ؟ فقال : أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج ألفا ومنكم رجل"[٢] وذكر الحديث بنحو ما تقدم .[٣]

وبعد ذكر القرطبي رحمه الله للقولين عاد فقال :

وقيل : تكون مع النفخة الأولى .

وقيل : تكون مع قيام الساعة حتى يتحرك الناس من قبورهم في النفخة الثانية.

ويحتمل : أن تكون الزلزلة في الآية عبارة عن أهوال يوم القيامة .

وفائدة ذكر هول ذلك اليوم : التحريض على التأهب له والاستعداد بالعمل الصالح . واختار الطبري وابن كثير وغيرهما القول بأنها يوم القيامة.[٤]

---

(١) أخرجه الترمذي ١٤٦/٢ وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وأخرجه الإمام أحمد في المسند ٤٣٢/٤ ، وغيرها .

وأخرجه البخاري بنحو ما هنا في كتاب التفسير حديث ٤٧٤١ .

وكذا مسلم في كتاب الإيمان حديث ٢٢٢ .

(٢) الحديث متفق عليه أخرجه البخاري ٣٣٥/٨ ، ومسلم ٢٠١/١ وله بقية عندهما .

(٣) تفسير القرطبي ١٢/ ٢ – ٤ وانظر المحرر الوجيز ١٠٥/٤ وما بعدها .

(٤) تفسير الطبرى ٨٦/١٧ ، تفسير ابن كثير ٢٠٤/٣ .

أي : هول وفزع وزلزال وبلبال كائن يوم القيامة في العرصات بعد القيام من القبور إنه الأمر العظيم والخطب الجليل ، والطارق المفظع ، والحادث الهائل الذي يملأ النفوس بالرعب والفزع .

﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أي : تنسى أو : تلهو أو : تنشغل. (عما) قال المبرد: ما بمعنى المصدر ، أي : تذهل عن الإرضاع ، قال : وهذا يدل على أن هذه الزلزلة في الدنيا ، إذ ليس بعد البعث حمل وإرضاع ، إلا أن يقال : من ماتت حاملا تبعث حاملاً ، فتضع حملها للهول ، ومن ماتت مرضعة تبعث كذلك.

ويجوز أن تكون (ما) موصولة ، والعائد محذوف ، وهو أدل على شدة الهول وكمال الانزعاج .

قال أبو السعود : وعبر بـ (ما) دون (من) لتأكيد الذهول وكونه بحيث لا يخطر ببالها أنه ماذا ؟ إنها لا تدري من هو بخصوصه. ١ هـ ملخصا[١]

نسأل الله تعالى السلامة من أهوال ذلك اليوم الذي يجعل الولدان شيبا ، وتلقى المرأة جنينها لغير تمام ، وتذهل عن رضيعها الذي لم يبلغ حد الفطام .

والسؤال :

لم عبر القرآن بكلمة (مرضعة) دون كلمة مرضع ؟

ورحم الله صاحب الكشاف فقد افترض السؤال وأجاب عليه فقال :

فإن قلت : لم قيل (مرضعة) دون مرضع؟

قلت : المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي ، والمرضع التي من شأنها أن ترضع ، وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به ، فقيل (مرضعة) ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة . ١ هـ[٢]

ونقل العلامة الجمل نحو هذا عن شيخه .[٣]

---

(١) إرشاد العقل السليم ٣٦٥/٤ .

(٢) تفسير الكشاف ٢٤/٣ .

(٣) الفتوحات الإلهية ١٥١/٣ .

وعبارة المفسرين تدور حول هذا المعنى فأكثرهم قال (مرضعة) أي : بالفعل، أو : مباشرة للإرضاع . (١)

ويقول الطبرى : وفي إثبات الهاء في قوله (مرضعة) اختلاف بين أهل العربية، وكان بعض نحوى الكوفة يقول : إذا أثبتت الهاء في المرضعة فإنما يراد أم الصبي المرضع ، وإذا أسقطت فإنه يراد المرأة التي معها صبي ترضعه لأنه أريد الفعل بها ، قالوا : ولو أريد بها الصفة فيما يرى لقال مرضع ، قال وكذلك كل مفعل أو فاعل يكون للأنثى ولا يكون للذكر فهو بغير هاء نحو حامل وحائض ١ هـ (٢).

وفى المحرر : قال علي بن سليمان : هذه الهاء في (مرضعة) ترد على الكوفيين قولهم : إن الهاء لا تكون فيما لا تلبس له بالرجال ، ثم أشار إلى ما ذكره الطبري. ١ هـ (٣)

وبعد تعقيب على نحاة الكوفة قال العلامة الألوسي :

والتعبير به هنا أي (مرضعة) ليدل على شدة الأمر وتفاقم الهول ١هـ (٤)

---

(١) تفسير أبي السعود ٣٦٥/٤ ، المحرر الوجيز ١٠٦/٤ ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ٦٦/١٧ هامش الطبري.

(٢) تفسير الطبري ٨٨/١٧ .

وفى اللسان : اختلف النحويون في دخول الهاء في المرضعة .

فقال الفراء : المرضعة والمرضع التي معها صبي ترضعه ، ولو قيل في الأم مرضع لأن الرضاع لا يكون إلا من الإناث ، كما قالوا : امرأة حامض وطامث كان وجها ، ولو قيل في التي معها صبي مرضعة كان صواباً .

وقال الأخفش : أدخل الهاء في المرضعة لأنه أراد والله أعلم الفعل ولو أراد الصفة لقال مرضع.

وقال أبو زيد : المرضعة التي ترضع وثديها في ولدها ثم ذكر الآية .

وقال الخليل : امرأة مرضع ذات رضيع .. لأنك تصفها بفعل منها واقع أو لازم فإذا وصفتها بفعل هي تفعله قلت : مفعلة كقوله تعالى (كل مرضعة(. ١ هـ ملخصا مادة رضع .

(٣) المحرر الوجيز ١٠٦/٤ .

(٤) روح المعاني ١١٢/١٧ وانظر البحر المحيط ٣٥٠/٦ .

وانظر معاني القرآن للأخفش ٦٣٥/٢ .

إن القارئ الفطن لما يقرأ لابد أن تسترعي انتباهه هذه اللفظة (مرضعة) وأن يقف عندها ويتساءل :

إن الوصف الخاص بالنساء لا تأتي فيه الهاء على الأفصح – لأمن اللبس – ، فلما ذكرت الهاء هنا وهي ليست للتفرقة في وصف مشترك بين الذكورة والأنوثة ، علم أن لها دلالة ، ولها سر ، لاسيما والمتكلم هو الحكيم جل شأنه ويمكن أن نقول :

إن الآية واردة في ذكر أهوال القيامة ، والإنباء عن مشهد من مشاهدها والمشهد عبارة عن زلزلة عاتية ترجف منها الأرض والجبال ، ويغش الناس منها غاشية غامرة تذهل المرضعة عن رضيعها ، فما تدرى من أمره شيئاً ، ولا تملك له نفعاً ، ولا يمسكها عليه رحمتها به وحنوها عليه ، وإنه لبين يديها تضمه إلى صدرها، وتلقمه بالفعل ثديها ، ولكن الهول عطل الأمومة ، وأذهب أنبل العواطف.

وإن الزلزلة لتهز الحامل هزا عنيفا يوهن من تماسكها ، ويقذف بالجنين منها فيسقط لغير تمام ، بل وربما يسقط منها ولا تشعر به ، وقد كان منذ قليل في حرز أمين وفى قرار مكين .

وإذن فكلمة (مرضعة) في هذا الموضع وضمن هذا السياق أدل على المعنى من كلمة (مرضع) وهي الأنسب لإبراز الهول ، وإكساب الصورة جلاء وقوة تأثير، إذ الفرق جد كبير بين ما من شأنها أن ترضع وبين القائمة بالإرضاع المباشرة له بالفعل، التي ألقمت ثديها للطفل .

إن الكلمة تمثل ذهول الأم في أبلغ صورة فسبحان منزل القرآن الذي﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (١) والأمر – كما يقول صاحب الظلال – لا يخص مرضعة واحدة لعلة قد تكون فيها ، وإنما كل مرضعة ، وما تذهل المرضعة عن طفلها وفي فمه ثديها إلا للهول الذي لا يدع بقية من وعي. ١ هـ (٢)

---

(١) فصلت ٤٢ .

(٢) في ظلال القرآن ٢٤٠٨/٤ .

المثال السادس : الطفل بمكان الأطفال

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ .... ﴾ الحج الآية ٥ .

وقال سبحانه ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ... ﴾ الآية النور ٣١

وقال تعالى :﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا...﴾ الآية غافر ٦٧

في ظلال الآيات :

في آية الحج نداء وخطاب من الله تعالى لجميع الناس الشاكين في قدرة الله تعالى على البعث ، وفي تحققه كما أخبر الله ، أن ينظروا ويتفكروا في مبدأ خلقهم وكيفية تصويرهم في الأرحام ، ثم إيجادهم في هذه الحياة .

فقد خلقهم الله تعالى بقدرته الباهرة من تراب ثم تحول التراب بقدرته تعالى إلى طعام ثم تحول الطعام بقدرته وحده إلى منى يمنى (نطفة) ثم حول الله بقدرته العظيمة هذه النطفة إلى علقة ، ثم حولها الله إلى مضغة ، ثم جعل سبحانه المضغة مخلقة إلى أن تمت مدتها المعلومة له تعالى ، فأخرجها بحوله طفلا له حواسه وجوارحه، وأجهزته الداخلية وتكوينه المعجز .

أليس الذي أوجدكم الإيجاد الأول ، وخلقكم من التراب بقادر على إعادتكم للحياة مرة أخرى ؟؟

أليس في حكم العقل السليم أن من فعل شيئاً مرة يسهل عليه فعله مرة أخرى ؟ والآية كما يقول القرطبي : احتجاج على العالم بالبراءة الأولى ، والمعنى : يا أيها الناس إن كنتم في شك من الإعادة فإنا خلقنا أباكم آدم من تراب ، ثم خلقنا ذريته من

المنى ثم من دم متجمد ، ثم من قطعة لحم قدر ما يمضع – أو كأنها مضغت بالفعل – الخ ١ هـ بتصرف وتلخيص[١]

وهذا المعنى هو ما تقرره – إن شاء الله – آية غافر التي معنا .

وأما آية النور :

فهي أمر من الله عز وجل للرسول صلوات الله عليه أن يقول للمؤمنات إن الواجب عليهن ألا ينظرن إلى مالا يحل لهن ، وأن يحفظن فروجهن عن كل ما نهي الله تعالى عنه ، وألا يظهرن شيئاً ، مما يتزين به إلا ما جرت العادة بإظهاره كالخاتم في الإصبع أو الكحل في العين ، وما يشبه ذلك من الأمور التي لا غنى للمرأة عن إظهارها على خلاف بين العلماء في ذلك لا يسمح المقام هنا بالتفصيل والتحليل.

ثم أمر الله النساء أن يلتزمن الاحتشام في المظهر العام ، ولا يبدين زينتهن الخفية إلا لمن نصت عليهم الآية كل بحسب منزلته ودرجته ، فهؤلاء الأصناف السبعة الذين ذكرتهم الآية بعد الأزواج وهم (آبائهن) (آباء بعولتهن) (أبنائهن) (أبناء بعولتهن) (إخوانهن) (بني إخوانهن) (بني أخواتهن) هؤلاء كلهم من المحارم الذين لا يحل للمرأة الزواج بواحد منهم ، وقد جرت العادة باحتياج النساء إلى مخالطتهم أكثر من غيرهم، كما جرت العادة بأن الفتنة مأمونة بالنسبة لهم ، إذ من طبيعة النفوس الكريمة المستقيمة أنها تأنف من التطلع إلى محارمها ، ويلحق بالمحارم الأعمام والأخوال ، وكذا المحارم من الرضاع ، والأصول وإن علوا ، والفروع وإن سفلوا وهو رأي الجمهور كما صرح به القرطبي .[٢]

وكذا يجوز للنساء المؤمنات أن يبدين زينتهن أمام :

(١) النساء المختصات بهن صحبة وخدمة

(٢) ما ملكت أيمانهن من الإماء لا من العبيد البالغين.

(٣) الرجال التابعون لهن طلبا للإحسان والانتفاع ، وهم في الوقت نفسه قد تقدمت بهم السن ، فلا حاجة لهم في النساء ، ولا يعرفون شيئا من أمورهن ولا

---

(١) تفسير القرطبي ٦/١٢ وما بعدها.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٣٣/١٢.

يصفونهن للأجانب ، وقد عبر القرآن عنهم تعبيراً جامعاً مانعاً معجزاً ، فقال (غير أولي الإربة من الرجال) أي : غير ذوي الحاجة – مطلق الحاجة – من الرجال في النساء ، وفسره بعضهم – كما قال القرطبي : بالأبله ، وبعضهم : بالخصي ، وبعضهم : بالعنين ، وبعضهم : بالشيخ الكبير.

قال القرطبي : وهذا الاختلاف كله متقارب المعنى ، ويجتمع فيمن لا فهم له ولا همة ينتبه بها إلى أمر النساء. ١ هـ [١]

(٤) الأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء أي : لم يعرفوا ولم يميزوا عورات النساء ، ولم يعرفوا طبيعة هذه العورات وما خلقت له ، ويكاد لا ينطبق هذا المعنى في عصرنا إلا على من كان دون الرابعة أو الخامسة على أقصى حد ، أما من كان فوق ذلك فيعامل معاملة من بلغ الحلم ، فقد غرست الفضائيات المفضوحة هذه البذرة الخبيثة في نفوس الناشئة ، وبالتالي فليس طفل اليوم كطفل الأمس ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

يقول صاحب التفسير الوسيط :

إن هؤلاء اثنا عشر نوعا من الناس ، ليس عليهم ولا على المرأة حرج في أن يروا منها موضع الزينة الخفية كالرأس والذراعين ، والساقين ، لانتفاء الفتنة التي من أجلها كان الستر والغطاء ، فأما الزوج فله رؤية جميع جسدها ، ثم نهى سبحانه النساء المؤمنات عن إبداء حركات تعلن عن زينتهن المستورة ، بل عليهن أن يلتزمن خلال خروجهن من بيوتهن الأدب والاحتشام ، والمشي الذي يصاحب الوقار والاتزان ، فلا يضربن بأرجلهن في الأرض ليسمعن غيرهن – من الرجال – أصوات حليهن الداخلية بقصد التطلع إليهن والميل نحوهن بالمحادثة أو ما يشبهها . فالمنهى عنه إحداث أي حركة أو فعل من شأنه إثارة الشهوة والفتنة ، وتهييج الغريزة بلفت النظر إليها. ١هـ بتصرف وتلخيص. [٢]

---

(١) المرجع السابق .

(٢) التفسير الوسط للدكتور/ محمد سيد طنطاوي ١٤٨/١٠ وما بعدها.

وقد ذكر القرطبي في هذه الآية ثلاثا وعشرين مسألة أفاد فيها وأجاد ، ومن جملة ما أشار إليه أن الزوج يرى جميع بدن زوجته ، إذ كل محل من بدنها حلال له لذة ونظراً ، ولما ذكر الله الأزواج وبدأ بهم ثنى بذوى المحارم وسوى بينهم في إبداء الزينة ، ولكن تختلف مراتبهم بحسب ما في نفوس البشر ، فلا مرية أن كشف المرأة عن زينتها لأبيها وأخيها يختلف عن ولد زوجها. ثم قال : والمراد بنسائهن أي : المسلمات ١ هـ [١]

وقفة تأمل :

ينبغي أن نقف وقفة متأنية أمام إيراد القرآن لكلمة الطفل أو الأطفال ، وباستقراء ما في القرآن الكريم من ذلك نرى أن لفظ (الطفل) جاء مفرداً هكذا معرفاً بالألف واللام مرة واحدة هي التي معنا في آية النور ، وجاء لفظ (الأطفال) جمعا محلي بالألف واللام مرة واحدة. [٢] وجاء (طفلا) مفرداً منكراً مرتين ، هما اللتان معنا في الحج وغافر.

وموضع آخر النور جاء اللفظ على وفق مقتضى الظاهر فيه ، أما في المواضع الثلاثة الأخرى فقد جاء اللفظ على خلاف مقتضى ظاهر السياق ، وهو ما نحاول مستعينين بالله تجلية وجه الحكمة فيه.

ففي موضعى (الحج) ، و(غافر) حديث عن الأطفال في مرحلة محدودة ، وهي مرحلة أول عهدهم بالحياة حين يخرجون إليها ، فالأطفال في هذه الحال جمع كبير ولكنهم في حقيقة أمرهم كفرد واحد ، إنهم وإن اختلف آباؤهم وأمهاتهم ، وتعددت صورهم وجنسياتهم ، وكثرت أعدادهم كما ، إلا أنهم يتوحدون في الكيف ، أي : في سر الوجود وحكمة الموجد سبحانه ، فهم جميعاً على الفطرة كما قال ﷺ :

"ما من مولود إلا ويولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهود وأنه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء. هل تحسون فيها من جدعاء؟

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٣١/١٢ وما بعدها.

(٢) سورة النور آية ٥٩ .

اقرأوا إن شئتم قول الله ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ (١)

فالله تعالى – كما قال ابن كثير نقلا عن بعضهم – ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلة المستقيمة ، لا يولد أحد إلا على ذلك ، ولا تفاوت بين الناس في ذلك . ١ هـ (٢)

فكأنه تعالى شأنه مراعاة لهذا المعنى ذكر اللفظ مفرداً ، وإن كان معناه جمعا، أو قل : إن كيفية تكون الجميع داخل الأرحام ثم خروج الجميع كذلك يكون على كيفية واحدة في الأعم الأغلب فلذا روعى الإفراد والله أعلم .

وأما آية النور فقد تحدثت عن الذين يباح للنساء أن يبدين زينتهن أمامهم والملاحظ أنهم جميعاً ذكروا بلفظ الجمع ، أما الأطفال فقد ذكروا وحدهم بلفظ الإفراد، وهنا السؤال :

أما يقتضى ظاهر الأسلوب ونسق التعبير القرآني أن يجري على الأطفال مثل ما جرى على سابقيهم فيذكروا أيضا بلفظ الجمع ؟

نعم هذا السؤال وارد ولكن إذا علم السائل حكمة هذا الخلاف أو هذا التغاير، والمعنى الذي يرمز إليه علم إعجاز وروعة وحكمة البيان القرآني فالأطفال هنا مازالوا أطفالا فهم وإن بعدوا قليلاً عن سن الولادة خطوات وخطوات ، وقضوا من عمرهم أعواماً معدودات ، لكنهم في قضية إبداء الزينة أطفال ، فهم لا يزالون على سنن الفطرة من البراءة والطهر ، إنهم لم يعرفوا ما العورة؟ ولا فيم خلقت؟

وإذا كان الأمر كذلك فكما يقول الأستاذ الفاضل/ على النجدي ناصف : كيف يصح في شرعة البيان والإعجاز أن يذكروا مع من ذكروا معهم بلفظ الجمع مثلهم، وهم ليسوا منهم ولا على شاكلتهم في الحكم الذي جمع بينهم لهذا الوصف المميز الذي

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الروم والحديث أخرجه البخاري في كتاب/ الجنائز – باب / ما قيل في أولاد المشركين حديث (١٣٨٥) كذا في الفتح ٣١٤/٣.

وأخرجه مسلم في ك / القدر – ب/ معنى كل مولود يولد على الفطرة ع/ ٢٦٥٨ مسلم بشرح النووي ٢٢٧/٤. وانظر تفسير ابن كثير ٤٣٢/٣ .

(٢) المرجع السابق .

خصهم الله به تعبيراً عن الحقيقة والواقع ، فيذكر الآخرون إذن بألفاظ الجموع على ما جرت به عادة الأسلوب وظاهر الحال لتكون الكلمات على مثل مدلولاتها، ومطابقة لحال كل منها دون تغير ، أما الأطفال فلهم شأن غير الشأن ، وفيهم مزية يتفردون بها، فليذكروا وحدهم بلفظ الواحد خاصة تنبيها على ما تميزوا به وإشارة إليه ، وغناء بإشعاع اللفظ في إفراده عن بيان أمره بالألفاظ والعبارات.

أما إذا بلغ الأطفال الحلم فقد انتقلوا من طور الطفولة الخالصة إلى طور التكليف والنزول على حكم الشرع في شؤون العبادة وأحوال السلوك ، لقد أخذت شخصياتهم تتنوع ، وخصائص نفوسهم تتميز واستحقوا إذا ذكروا في أداء منسك أو ملابسة شعيرة ، أن يذكروا بلفظ الجمع ، ويعاملوا معاملة الرجال في التكليف ، وفي الإسناد والخطاب ، لأنهم – وإن لم يبلغوا مبلغهم من نضج الشخصية واكتمال الرجولة – قد بعدوا من الفطرة ، وفقدوا وحدتها وسمتها ، وهي لا غيرها الوحدة التي تجعل من جمعهم فرداً ، ولذا عبر القرآن عنهم على هذا النحو في قوله عز من قائل ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ (١)

فجعل مثلهم في الاستئذان كمثل الرجال الذين سبقوهم في الذكر حيث يقول سبحانه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا.... ﴾ (٢)

ويقول صاحب الكشاف : وَحَّده – أي : طفلا – لأن الغرض الدلالة على الجنس ، ويحتمل : نخرج كل واحد منكم طفلا. ١ هـ (٣)

وبنحو ذلك قال النسفي في تفسيره . (٤)

وكذا قال القاضي البيضاوي ، وزاد وجها آخر فقال : أو لأنه في الأصل مصدر. (٥)

---

(١) سورة النور آية ٥٩.

(٢) سورة النور آية ٢٧ وانظر مع القرآن الكريم للأستاذ / علي النجدي ص ١١١.

(٣) تفسير الكشاف ٢٦/٣ .

(٤) مدارك التنزيل وحقائق التأويل ٩٤/٣ .

(٥) تفسير البيضاوي ٥٣٦/٣ .

وقال القرطبي : أي : أطفالا. فهو اسم جنس ، وأيضا: فإن العرب قد تسمى الجمع باسم الواحد ، ونقل عن المبرد أنه : اسم يستعمل مصدراً كالرضا والعدل ، فيقع على الواحد والجمع ، ثم ذكر آية النور الأولى ، وفي تفسير القرطبي للموضع الأول من سورة النور دلل على كونه اسم جنس بمعنى الجمع بنعته بـ (الذين) . [١]

واقتصر ابن عطيه على كونه اسم جنس أي : أطفالاً . [٢]

وعبارة القاضي أبي السعود : قال : الإفراد باعتبار كل واحد منهم ، أو : بإرادة الجنس المنتظم للواحد والمتعدد ، ثم قال في تفسير آية النور الأولى : والطفل اسم جنس ، وضع موضع الجمع اكتفاء بدلالة الوصف . ١ هـ [٣] وبنحو ذلك قال البروسوى في تفسيره . [٤]

ونقل الجمل في حاشيته على الجلالين عن السمين احتمالات ثلاثة فقال ما ملخصه : وإنما وحد (طفلا) لأنه :

١- في الأصل مصدر كالرضا والعدل فيلزم منه الإفراد والتذكير . قاله المبرد .

٢- أو : يراد به الجنس .

٣- أو : لأن المعنى: نخرج كل واحد منكم . ، وقد يطابق فيقال : طفلان وأطفال.

والطفل يطلق على المولود من حيث الانفصال إلى البلوغ ١ هـ [٥]

وذكر الالوسي نحو هذا في تفسير آية الحج ، ثم قال في تفسير آية النور : (أو الطفل الذين) أي : الأطفال ، فهو مفرد محلي بأل الجنسية فيعم ، ولهذا – كما قال في البحر – وصف بالجمع ، فكأنه قيل : أو الأطفال ، كما هو المروى عن مصحف حفصة.

وقيل : هو مفرد وضع موضع الجمع ، ونحوه قوله تعالى ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾، وتعقب بأن وضع المفرد موضع الجمع لا ينقاس عند سيبويه ، وما هو عنده

---

(١) تفسير القرطبي ١١/١٢ وما بعدها .

(٢) المحرر الوجيز ١٠٩/٤ ، ١٧٩ .

(٣) إرشاد العقل السليم ٣٦٨/٤ ، ٤٥٤ .

(٤) مختصر تفسير روح البيان ٦٩/٣.

(٥) الفتوحات الإلهية ١٥٣/٣ .

من باب المفرد المعرف بلام الجنس وهو يعم بدلالة صحة الاستثناء منه ، والآية المذكورة – آية الحج – يحتمل أن تكون عنده على معنى ثم نخرج كل واحد منكم طفلا، كما قيل في قوله ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ [١] ، وقال الراغب : إن (طفلا) يقع على الجمع كما يقع على المفرد ، ونص على ذلك الجوهري، وكذا قال بعض النحاة إنه في الأصل مصدر يقع على القليل والكثير ، والأمر على هذا ظاهر جداً . ١ هـ [٢]

وقال الأخفش في قوله (أو الطفل) : جعل الطفل جماعة كما قال ﴿ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [٣]

وهكذا كما ترى أهل المعاني والمفسرين الجميع يدورون حول التخريج اللغوي، ومعظم أقوالهم تعتمد أولا وآخراً على مرونة العربية ، وتنهج نهج النحو في التأويل والتقدير ، وإذا جاز أن يؤخذ بمثلها في توجيه مشكل كلام الناس ، فأرى ألا يكتفى بها في تأويل كلام رب العالمين ، بل يبحث عن الحكمة في إيثار لفظ دون لفظ ، وصياغة دون صياغة ، والمغايرة في التعبير بلفظ واحد في موضعين كأن يذكر في موضع مفرداً وفي موضع جمعا ما دام العلماء قالوا إن المفرد بمعنى الجمع فلم المغايرة؟

وهذا أحد أئمة اللغة الإمام أبو منصور الثعالبي – رحمه الله – يذكر تحت عنوان (فصل في إقامة الواحد مقام الجمع) كثيراً من الآيات دون أدنى بيان لوجه الحكمة فيقول :

"هي من سنن العرب إذ تقول : قررنا به عينا أي : أعينا ، وفي القرآن ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [٤]﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [٥] أي : أطفالا ، ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ [٦] وتقديره : وكم ملائكة في السموات ،

---

(١) سورة يوسف الآية ٣١ .

(٢) روح المعاني ١١٧/١٧ ، ١٤٥/١٨ وما بعدها.

(٣) سورة القمر آية ٤٥ وانظر معاني القرآن للأخفش ٦٤١/٢ .

(٤) سورة النساء من الآية ٤ .

(٥) سورة الحج من الآية ٥ .

(٦) سورة النجم من الآية ٢٦ .

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١)﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي﴾ (٢) ولم يقل : أعدائي ولا أضيافي ... الخ . (٣)

المثال السابع : رسول بمكان رسولين :

قال تعالى : ﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الشعراء ١٥ – ١٦ .

في ظلال الآيات :

هاتا الآيتان من سورة الشعراء ، وهما في سياق قصة موسى وذهابه إلى فرعون ، وما أظهره موسى عليه السلام أول الأمر من خوفه من جبروت الطاغية ، وتكذيبه إياه ، ثم تبعة قتل القبطي بالوكزة المعروفة ، فطلب عليه السلام من ربه أمرين:

أحدهما : رفع الشر عنه .

ثانيهما : إرسال هارون معه لكونه أفصح لسانا منه .

يقول الشيخ / المراغي رحمه الله تعالى :

قال الله له : لا تخف من شيء من ذلك فاذهب أنت وأخوك متعاضدين إلى ما أمرتكما به مؤيدين بآياتنا الدالة على صدقكما ، وإني ناصركما ومعينكما عليه (فأتيا فرعون) وقولا له : إن الله أرسلنا إليك لتطلق سبيل بني إسرائيل ، وتخليهم وشأنهم ليذهبوا إلى الأرض المقدسة. (٤)

والسؤال :

إذا كان الخطاب في هاتين الآيتين لموسى وهارون عليهما السلام ، فلم كان الخبر عنهما بلفظ الإفراد ﴿ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ ﴾ ؟

(١) سورة الشعراء الآية ٧٧ .
(٢) سورة الحجر الآية ٦٨ .
(٣) فقه اللغة وأسرار العربية ص٣٦٤ .
(٤) تفسير المراغي ٤٣/٧.

ما الحكمة من إيثار صيغة الإفراد هنا على صيغة التثنية التي هي أصل الكلام ومقتضى ظاهره ؟

والجواب : هل يمكن أن نقول لأن الأصل في الرسالة هو موسى عليه السلام فهي – في الأعم الأغلب – تنسب إليه ، والجميع يقول موسى أرسله الله إلى اليهود – بني إسرائيل – وهو الذي أنزل الله عليه التوراة ، وهو الذي أظهر الله على يديه المعجزات ، وذكره وقصته في القرآن أوفر خطا وأكثر نصيبا من هارون ، بل لا تكاد تصح مقارنة بينهما في ذكر القرآن لهما.

يقول الشيخ / المراغي في هذه المسألة :

ووحد الرسول هنا ولم يثنه كما جاء في قوله﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ (١) لأن رسولا يستعمل للمفرد ولغيره كما قال الشاعر :

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم ∴ بسر ولا أرسلتهم برسول

كما يستعمل كذلك عدو ، صديق ، كما جاء في قوله ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي ﴾ (٢)

وللإمام زين الدين الرازي الحنفي كلام نفيس في هذا المقام ، وأجاب بأجوبة متعددة فقال رحمه الله :

فإن قيل : كيف قال تعالى ﴿ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فأفرد ، وقال في موضع آخر﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ ؟

(١) سورة طه الآية ٤٧ .
(٢) سورة الشعراء الآية ٧٧ – وانظر تفسير المراغي ٤٣/٧ .
والبيت عزاه صاحب مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف لكثير صاحب عزة وفيه (فهت) بدلا من (بحت). والواشي : الذي يحسن الكلام ويموهه ، ويخلط الصدق بالكذب ، ويحرف الكلم عن مواضعه .
فالشاعر يقول : إني لا أتفوه عندهم بسر ، ولا أرسلتهم إلى أحد برسول أي : برسالة ، فهو في الأصل مصدر ، وقد يطلق على المرسل – بفتح السين – وهو الظاهر ، ويمكن أن تكون أرسلتهم برسول أي : أرسلت إليهم ١ هـ بتصرف يسير ص ٩٩.

قلنا : الرسول يكون بمعنى المرسل ، فيلزم تثنيته ، ويكون بمعنى الرسالة التي هي المصدر ، فيوصف به الواحد والاثنان والجماعة كما يوصف بسائر المصادر، والدليل على أنه يكون بمعنى الرسالة قول الشاعر :

- وذكر البيت السابق -

وأيضا : لاتفاقهما في الأخوة والشريعة والرسالة ، جعلا كنفس واحدة .

وأيضا : تقديره : إن كل واحد منا رسول رب العالمين .

وأيضا : إن موسى عليه السلام كان الأصل ، وهارون عليه السلام كان تبعا له ، فأفرد إشارة إلى ذلك . ١ هـ [١]

وهذا كلام جيد فموسى عليه السلام هو الأصل - كما أشرنا آنفا - ولذا قال له فرعون - كما ذكر الله تعالى - ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ [٢] حيث خاطبهما معاً ، وأفرد بالنداء موسى لأنه كما يقول ابن عطيه :

صاحب عظم الرسالة ، وكريم الآيات . [٣]

وكما يقول صاحب الكشاف :

خاطب الاثنين ، ووجه النداء إلى أحدهما وهو موسى عليه السلام لأنه الأصل في النبوة وهارون وزيره وتابعه ، ويحتمل أن يحمله خبثه ودعارته[٤] على استدعاء كلام موسى دون كلام أخيه ، لما عرف من فصاحة هارون ، والرتة في لسان

---

(١) الأنموذج الجليل من غرائب آي التنزيل ص٣٤١.

(٢) سورة طه الآية ٤٩ .

(٣) المحرر الوجيز ٤٦/٤ .

(٤) قال صاحب اللسان : الدَّعر - بتشديد المهملة وكسر ما بعدها - ما احترق من حطب أو غيره فطفئ قبل أن يشتد احتراقه . ، والدعر : الحطب البالي ، ويقال للنخلة إذا لم تقبل اللقاح : دعرة؛ ودعر الرجل - بفتح الدال وكسر العين أو فتحها - دعار أي : فجر ومجَر ، وفيه دعارة أي: خائن يعيب أصحابه وقيل : الدعر الذي لا خير فيه ، وأهل الدعارة : أهل الفساد والشر. ١هـ ملخصا - مادة : دعر ١٣٧٩/٢ .

موسى[١] ويدل عليه قوله﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [٢] ونقل أبو حيان كلام ابن عطية ، وكلام الزمخشري ، ثم قال :

واستبد موسى عليه السلام بجواب فرعون حيث خصه بالسؤال والنداء معا[٣].

وأورد ابن قتيبة الآية - التي معنا - في كتابه تأويل المشكل تحت عنوان :

ومنه واحد يراد به الجمع ، وذلك ضمن باب (مخالفة ظاهر اللفظ معناه) . [٤]

ونحو الذي نقلنا لك عن زين الدين الرازي الحنفي قال جار الله الزمخشرى ، والظاهر أنه منه فالزمخشري أسبق.

واقتصر ابن عطيه على كون (رسول) أجرى مجرى المصدر ، وهو يوصف به الجمع والواحد والمؤنث . [٥]

كما اقتصر صاحب البحر على كونه إما مصدر ، وإما لكونها ذوى شريعة واحدة ، أو : التقدير : كل واحد منا رسول ١ هـ [٦]

إن هذه الآية الكريمة تجمع بين موسى وهارون عليهما السلام ، وتجعلهما سواء في حمل الرسالة والنهوض بتبعاتها ليجعل من كل منهما شطراً لصاحبه لافكاك له منه ، ولا غنى له عنه، ولا يدع محلا للعجب أو داعياً للتساؤل ، إذ يعاملها القرآن هنا معاملة الفرد في التعبير لا معاملة الاثنين ذهاباً مع المعنى ، وإيماء إلى روابط التكليف الإلهي ، وإلى ما سبقها من لحمة الرحم وأخوة النسب ، وما كان الأسلوب ليسير إلى شيء من ذلك لو أنه جرى على وفق مقتضى الظاهر في التعبير.

---

(١) الرتة - بالضم - عجلة في الكلام وقلة أناة ، وقيل : هو أن يقلب اللام ياء ، وقيل : هي العجمة في الكلام. كذا في اللسان مادة : رتت ١٥٧٥/٣ .
ونحوه في المختار ص ١٣٦ .
وقال الآلوسي: وروى أنه كان في لسانه عليه السلام رتة من جمرة أدخلها فاه في صغره، وقيل: كانت العقدة في لسانه عليه السلام خلقة ١ هـ ملخصا ١٨٢/١٦ .

(٢) سورة الزخرف الآية ٥٢ وانظر تفسير الكشاف ٤٣٥/٢ .

(٣) البحر المحيط ٢٤٧/٦ .

(٤) تأويل مشكل القرآن ص٢٨٤ .

(٥) تفسير ابن عطية ٢٢٧/٤ .

(٦) البحر المحيط ٨/٧ .

ولا غرو فالرسالة واحدة ، والمرسل إليه فرعون ، وكأن إفراد الرسول هنا طعنة موجهة لهذا الطاغية حتى لا تسول له نفسه الأمارة بالسوء أن يفرق بينهما، أو يوحي لقومه بهذا المعنى ، فجاء اللفظ الدال على الوحدة والاتحاد فهما من هذه الحيثية واحد لا اثنان ، فالإفراد في آيتنا لهذا المعنى ، والتثنية في قوله تعالى﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [١] لإثبات نبوة هارون ، وإعلام فرعون وغيره بذلك حتى لا يرتاب في هذا الأمر مرتاب .

وسبحان من هذا كلامه وذاك تنزيله ، والله أعلم بمراده.

المثال الثامن : قليلون بمكان قليلة:

قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ الشعراء ٥٢ -٥٥.

في ظلال الآيات :

من المعلوم أن نبي الله موسى عليه السلام أقام بين ظهراني المصريين ، يدعوهم إلى الحق ، ويظهر لهم الآيات ، فما آمنوا بل أعرضوا وأنكروا وجحدوا ، واستهزأوا ، وظل سنوات عديدة أوصلها بعضهم إلى ثلاثين [٢]، وأخذهم الله بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ، فلم يعتبروا ، فأمر الله موسى أن يخرج ببني إسرائيل من مصر ليلا إلى جهة البحر لا إلى جهة الشام في البر ، قال صاحب الظلال: وهو في الغالب عند التقاء خليج السويس بمنطقة البحيرات . [٣]

قال القرطبي : فخرج موسي – عليه الصلاة والسلام – ببني إسرائيل سحراً، فترك الطريق إلى الشام على يساره وتوجه نحو البحر ، فكان الرجل من بني إسرائيل

---

(١) سورة طه الآية ٤٧ .

(٢) حاشية الجمل ٢٧٨/٣ .

(٣) في ظلال القرآن ٢٥٩٧/٥ .

يقول له في ترك الطريق ، فيقول : هكذا أمرت ، فلما أصبح فرعون وعلم بسرى موسى ببني إسرائيل خرج في أثرهم وبعث إلى مدائن مصر لتلحقه العساكر . اهـ[١]

فاحتشد له الجند من كل صوب وحدب ، ثم هتف فيهم بما يرفع معنوياتهم، ويقوى من حماسهم وجرأتهم حيث وصف لهم بني إسرائيل بالقلة .

فالشرذمة هي : الطائفة القليلة من الناس ، أو : الجمع المحتقر

قال الراغب : الشرذمة جماعة متقطعة . [٢]

وقال الألوسي : الشرذمة طائفة من الناس ، وقيل : هي السفلة منهم ، وقيل: بقية كل شيء خسيس . ١ هـ . [٣]

وكذا قال ابن عطية . [٤]

والسؤال : مقتضى ظاهر التعبير إفراد كلمة (قليلون) كأن يقال : شرذمة قليلة، كقوله سبحانه ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [٥] فلم عدل عن مقتضى الظاهر إلى الجمع ؟

يقول جار الله الزمخشري طيب الله ثراه :

ذكرهم بالاسم الدال على القلة (الشرذمة) ثم جعلهم قليلاً بالوصف ثم جمع الوصف (قليلون) فجعل كل حزب منهم قليلاً ، واختار جمع السلامة الذي هو للقلة، وقد يجمع القليل على قلة ، وقلل.

والمعنى : إنهم لقلتهم لا يبالي بهم ولا يتوقع غلبتهم وعلوهم ، ولكنهم يفعلون أفعالاً تغيظنا .. الخ .

ويعلق صاحب الانتصاف رحمه الله ، ويبين أن الزمخشري ذكر أربعة أوجه وهي :

أ- أنه عبر عنهم بالشرذمة وهي تفيد القلة.

---

(١) تفسير القرطبي ١٠٠/١٣ .

(٢) المفردات ص٢٦٤ .

(٣) روح المعاني ٨١/١٩ .

(٤) المحرر الوجيز ٢٣٢/٤ .

(٥) سورة البقرة الآية ٢٤٩.

ب- وصفهم بالقلة .

ج- جمع وصفهم ليعلم أن كل ضرب منهم قليل.

د- اختار جمع السلامة ليفيد القلة .

وأضاف ابن المنير وجها خامسا فقال :

إن جمع الصفة والموصف مفرد قد يكون مبالغة في لصوق ذلك الوصف بالموصوف ، وتناهيه فيه بالنسبة إلى غيره من الموصوفين به كقولهم: (معّي زيد جياع) مبالغة في وصفه بالجوع ، فكذلك ها هنا جمع قليلاً وكان الأصل إفراده، فيقال: لشرذمة قليلة ، كما أفرد في قوله ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ ليدل بجمعه على تناهيهم في القلة. ١ هـ . [١]

وتبع أبو حيان الزمخشري فيما قاله ، وكذا الآلوسي ، واقتصر القاضي البيضاوي على القول الثالث وعبارته هي : (قليلون) باعتبار أنهم أسباط كل سبط مهم قليل . [٢]

وهكذا كما ترى مما أسلفنا لك عن جار الله ، ومن نحا نحوه ، أن مقتضى الظاهر أن يقال : لشرذمة قليلة ، ولكن عدل عنها إلى ما ذكر ليبين لنا مكر اللعين ، ودهاءه ، حيث أراد أن يبين لقومه أنه لا يخشى بأسهم ولا يرهب شرهم، ولا يعجزه أن يظفر بهم إذا خرجوا خفية – كما فعلوا – ، وإنما هم في رأيه وفي حقيقة أمرهم بالنسبة إليه شرذمة لا تكاد تذكر قلة وهوانا.

وجمع الصفة وإفراد الموصوف كما أشار إليه ابن المنير – كأن فرعون أراد أن يبين لقومه قلة هؤلاء في العدد والعتاد ، وقلتهم في البأس ، وقلتهم في كل ما يمكن أن يكون للقلة مدخل فيه ، ثم يصرح فرعون بأن هؤلاء مع قلتهم هذه يأتون بأفعال تغيظنا ، وتضيق بها صدورنا ، ومنها أخذهم لأموالنا وحلى نسائنا ، ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر ، واستعمال الحزم في الأمور ، فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى حسم فساده .

---

(١) تفسير الكشاف ١١٥/٣ والهامش.

(٢) انظر البحر المحيط ١٨/٧ ، روح المعاني ٨١/١٩ ، تفسير البيضاوي ١٥٦/٤ .

يقول الزمخشري : وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن لئلا يظن به ما يكسر من قهره وسلطانه . ١ هـ [١]

فإن انطلاق أعوانه بجمع الجند وحشدهم أمر قد يشى بانزعاج فرعون وبقوة موسى ومن معه ، وعظم خطرهم ، حتى ليحتاج الإله الملك – بزعمه – إلى مثل هذه التعبئة العامة ، فلابد إذن من التهوين من شأن موسى ومن تبعه إنها حيرة الباطل، واضطرابه من الداخل من أهل الحق الأنبياء وأتباعهم ، وإن حاول أن يتدثر بثوب البطولة ، وأن يركب مراكب الزهو والخيلاء ، وأن يرفع لواء الفروسية ، ويهون من شأن خصمه ليخدع أتباع الباطل ، وحاشية السوء وبطانة الإثم والعدوان .

إن عنف ثورته لدليل على قوة خصمه ، وإن تفنن هو في إخفاء ذلك .

والله أعلم بأسرار كتابه

المثال التاسع : الخصم بمكان الخصوم

قال تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ ص ٢١ – ٢٢

في ظلال الآيات :

هاتان الآيتان من جملة ما قصه الله تعالى علينا من قصة نبي الله داود – عليه السلام – والسياق والسباق واللحاق واضح من خلال مطالعة الآيات من قوله تعالى ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ﴾ إلى قوله ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ الآيات من ١٧ – ٢٦.

والمعنى : هل علمت ذلك الخبر العجيب العظيم الفائدة ؟

إنه نبأ الجماعة الذين تسلقوا سور غرفة داوود التي خصصها للعبادة ، فدخلوا عليه وهو مشتغل بعبادة ربه سبحانه – أي في غير الوقت الذي خصصه عليه السلام للحكم – وحين رآهم فزع منهم ظنا منه أنهم جاءوا لقتله أو إرادة السوء به ، فلما رأوا

---

(١) الكشاف ١١٥/٣ .

خوفه ، طمأنوه وقالوا : لا تخف منا ، إنما نحن خصمان جار أحدنا على الآخر واعتدى عليه ، فاحكم بيننا حكما عادلا ، ولا تبعد عن الحق ، ولا تجر في الحكم ، واهدنا إلى الطريق السوي والاستفهام في صدر الآية للتعجب والتشويق إلى استماع ما في حيزه كما يقول الشيخ / البروسوى : للإيذان بأنه من الأخبار البديعة التي حقها أن لا تخفى على أحد .

وسر فزعه : أن الباب كان مغلقا عليه ، وجنده بالخارج واقفون ، ثم نزولهم عليه بغتة على خلاف العادة . ١ هـ بتصرف[١]

احتراس واجب

قد أورد بعض المفسرين في قصة نبي الله داود عليه السلام روايات ملفقة مرقعة واهية واهنة بالية تقدح في عصمة نبي الله وتنال من منصب النبوة الرفيع، ومنهم من أشار إلى بطلانها ، ومنهم من لم يشر اعتماداً على فطنة القارئ اللبيب.

ورحم الله إمامنا القرطبي – وعفا عنا وعنه – إذ أورد روايات معزوة لابن عباس وليزيد الرقاشي في نوادر الأصول للترمذي الحكيم تقدح في عصمة نبي الله داود – عليه السلام – وهي من قبيل الإسرائيليات ، وإن كان قد نقل عن أبي جعفر النحاس أن أكثر ما يروى في ذلك لا يصح ، ولا يتصل إسناده ، ولا ينبغي أن يجترئ على مثله إلا بعد المعرفة بصحته . ١ هـ [٢]

ومع ذلك أقول : وما نقله الإمام القرطبي عن بعض المفسرين من أنه أصح ما روى في قصة داود لا يخلو من نظر ، ولا يسلم من القيل والقال ، ولولا خشية الإطالة، والخروج عن جوهر الموضوع لبسطنا القول في دفع الشبهات وتفنيد الروايات التي تقدح في عصمة أصحاب الرسالات ، والعصمة بحمد الله ثابتة لا تؤثر فيها أمثال هذه الأقاويل.

ولله در القاضي البيضاوي حين قال : وما قيل إنه – أي داود – أرسل أوريا إلى الجهاد مراراً ، وأمره أن يقدم حتى قتل ، فتزوج امرأته كلام هزء وافتراء ولذلك

(١) تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ٢٦٣/٣.
(٢) تفسير القرطبي ١٦٥/١٥ – ١٧٧.

قال علي رضي الله عنه : من حدث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين . ١ هـ [١]

والسؤال :

كيف يذكر القرآن لفظ الخصم مفرداً ثم يعيد عليه الضمير جمعا في قوله (تسوروا) ، (دخلوا) ، (منهم) ، (قالوا) ؟

هل الكلام هنا كالذي ذكرنا لك في قوله (أو الطفل) من حيث التخريج اللغوي أو غير ذلك ؟ وإذا كان مثله فما حكمة المغايرة في هذا الموضع ؟ ما سر مخالفة مقتضى الظاهر ومجئ الكلام كله جمعاً ؟

أقول : ذهب اللغويون وأهل المعاني والمفسرون إلى أن (الخصم) يستعمل للمفرد والجمع ، والمذكر والمؤنث . قال الشاعر :

وخصم غضاب ينفضون لحاهم ∴ كنفض البراذين العراب المخالبا

فالخصم مصدر ، يطلق على الواحد وما فوقه ، كالضيف ، والعدو ، أو: وصف يجري مجرى عدل ووزر ، يوصف به الواحد والإثنان والجمع ومنه قول لبيد:

وخصم يعدو الدخول كأنهم ∴ قروم غيارى كل أزهر مصعب[٢]

قال ابن عطية :

ويحتمل أن يكون المتسور للمحراب اثنين فقط لأن نفس الخصومة إنما كانت بين اثنين ، فتجئ الضمائر في (تسوروا) ، (دخلوا) ، (قالوا) على جهة التجوز ، والعبارة عن الاثنين بلفظ الجمع ، ويحتمل أنه جاء مع كلِ فرق كالعاضدة والمؤنسة، فيقع على جميعهم خصم ، وتجئ الضمائر حقيقة ١هـ[٣] وهو قريب مما قاله صاحب الكشاف[٤] ، ونجوه في روح المعاني . [٥]

وأخيراً أقول :

(١) تفسير البيضاوي ٤٨٦/٤ .
(٢) ، (٣) المحرر الوجيز ٤٩٧/٤ .
(٤) الكشاف ٣٢٢/٣ .
(٥) روح المعاني ١٧٨/٢٣.

لعل إيثار ذكر كلمة (الخصم) بلفظ الإفراد وإن كانت معناها جمعا، أو تستعمل للجمع وغيره على حد سواء – كما أسلفت لك النقل عن المفسرين – وإعادة الضمير عليها جمعا ، ثم التعبير بالتثنية في قوله﴿ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ﴾ لمراعاة حال نبي الله داود عليه السلام.

فالقصة لكونها عجيبة غريبة ، وهي من الأنباء البديعة التي حقها أن تشيع فيما بين كل حاضر وباد ، لا يلتفت المتلقى لها إلى أشخاص القصة ، وكم عددهم بقدر ما يلتفت إلى موضوعها وفحواها ، وفي أي قضية هي من قضايا الحياة ، فيعاجله الذكر القرآني بأنها قصة خصومة .

ولكون الخصمين دخلا على داود المحراب ، وهو منشغل بعبادة ربه ، ثم إن الحرس خارجه واقفون ، ومهمتهم ألا يصعد أحد إلى نبي الله ، ولا يأذنوا لأحد مطلقاً، فلما خلص الخصمان إليه على حين غفلة ، فمن الطبيعي ألا يظن داود – أو غيره لو كان في موضعه – أن اللذين خلصا إليه فردان اثنان ولكن فردان وراءهما جمع كبير، فالمحراب منيع ، والحرس من حوله قيام ، فأنى لرجلين اثنين مهما أوتيا من قوة ورزقا من حيلة أن يتسنماه ، ويقتحما عليه خلوته بغير معونة قادرة مهدت لهما السبيل، ومدت لهما الأسباب ؟؟

فلابد إذن أن وراءهما جند كثير ، وجيش كبير ، لهذا كان الضمير جمعا (تسوروا) (دخلوا) (قالوا) ، فلما هدأ نبي الله داود ، وسكن قلبه بقولهما له (لا تخف) عرف أنهما خصمان كما قالا ﴿ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ﴾ ، وليس ممكنا بعد أن عاد داود عليه السلام إلى هدوئه واطمئنان قلبه أن يذكر العدد بلفظ الجمع لئلا يخالف الواقع ، ولا بلفظ المفرد بعد إذ عومل معاملة الجمع في التسور والدخول، وخطاب داود عليه السلام. (١)

فائدة :

قال زين الدين الرازي الحنفي : فإن قيل: كيف قال الملكان لما دخلا على داود عليه السلام ﴿ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ﴾ والملائكة لا يوجد منهم البغي

(١) استفيد بما ذكره أ/ علي النجدي ناصف في كتابه مع القرآن ص١١٤.

ولا الظلم ، وكيف قال ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ الخ ولم يكن كما قال؟؟؟

قلنا : إنما قالا ذلك على سبيل الفرض والتصوير للمسألة ، ومثل ذلك لا يعد كذبا ، كما تقول في تصوير المسائل : زيد له أربعون شاة ، وعمرو له أربعون، وأنت تشير إليهما ، فخلطاها وحال عليها الحول كم يجب فيها ؟ والواقع أنه ليس لهما شيء، وتقول : لي أربعون شاة ، ولك أربعون فخلطناها ، ومالكم شيء . ١ هـ (١)

وقول الرازي : كيف قال الملكان الخ لأنهما في الأصل هكذا وإن كان دخولهما على صورة بشرية.

المثال العاشر : إطلاق الجمع وإرادة المثني

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ فصلت ١١

في ظلال الآية الكريمة :

هذه الآية الكريمة جاءت في سياق الآيات الدالة على قدرته جل شأنه وعلى عظمته وسلطانه وقيوميته ، وحكمته في خلق السموات والأرض على أطوار مختلفة متعاقبة يقول القرطبي: (ثم استوى) أي : عمد وقصد (إلى السماء) لتسويتها ، والاستواء من صفات الأفعال على أكثر الأقوال.

وعن ابن عباس والحسن : أي صعد أمره إلى السماء .

وقوله (ثم) ترجع إلى نقل السماء من صفة الدخان إلى حالة الكثافة .

(فقال لها وللأرض ائتيا) أي : جيئا بما خلقت فيكما من المنافع والمصالح، وأخرجاها لخلقي طائعتين أو كارهتين (قالتا آتينا طائعين) أي : أتينا أمرك طائعين.

وقيل : معنى هذا الأمر التسخير ، أي : كونا فكانتا.

والجمهور على أن هذا القول بعد خلقهما .

وهل قولهما بلسان الحال أو المقال ؟

(١) غرائب أي التنزيل ١١٣/٥.

قول أكثر أهل العلم أنه بلسان المقال ، وما ذلك على الله بعزيز ١ هـ بتصرف[١]

إن مادة السماء قبل تكوينها وتسويتها كانت مثل الدخان ، قال ابن كثير : هو بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض. [٢]

وفي التفسير العلمي ما ملخصه :

إن تشبيه مادة السماء وتخصيصها باسم الدخان ، دون قوله مثلا : وهي هباء أو: وهي هواء ، أو : وهي بخار ، يشير إشارة قوية إلى أن مادة السماء الأولية قبل خلقها كان لها من الصفات الهامة ما يشبه صفات الدخان العادي الذي يتصاعد من النيران ، أي أنها كانت مادة مظلمة بذاتها ، مفككة الأجزاء خفيفة ومنتشرة في الفضاء، ساخنة إلى حد ما ، إذ الدخان لا يصدر إلا من أصل ناري ، وأنها مثل الدخان العادي كانت حاوية لدقائق أنواع المادة الثلاثة من صلبة وسائلة وغازية. [٣]

وفي إتيان السماء والأرض طائعتين يضيف صاحب التفسير العلمي رأيا آخر فيقول : إن الطاعة المرادة – أيضا– استجابة كل من الأرض والسماء لبعضها في الحركات والتفاعلات ، وأن يكون بينهما ملاءمة وتوافقا كأعضاء الجسم الواحد ، ثم ربط بين هذا المعنى وبين التسخير الذي تشير إليه آيات أخرى مثل قوله تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ [٤] ودلل عليه – بعد إشادته بهذا التأويل – بآية الأنبياء﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [٥] ١هـ بتصرف وتلخيص [٦]

إن الآية الكريمة تعرض صورة باهرة من صور القدرة الإلهية حيث الأمر الإلهي للسماء والأرض بالإذعان للمشيئة العليا ، والخضوع لسلطان الخلاق العليم

(١) تفسير القرطبي ٣٤٣/١٥ .
(٢) تفسير ابن كثير ٩٣/٤ .
(٣) التفسير العلمي للآيات الكونية أ/ حنفي أحمد ص٢١١.
(٤) سورة إبراهيم الآية ٣٣ .
(٥) سورة الأنبياء الآية ٣٠ .
(٦) المرجع السابق.

طوعا أو كرها ، فكان جوابها على ما يجب أن يكون إذعانا خالصا وخضوعاً كاملاً لا تردد فيه ولا تلجلج (قالتا آتينا طائعين) .

والسؤال : لم لم تكن عبارة الجواب على وفق عبارة الطلب والخطاب ، بل التخالف ظاهر بين الأمر والجواب ؟ فمقتضى ظاهر التعبير : قالتا أتينا طائعتين.

ويمكن أن نقول إجابة على هذا السؤال :

إن الأمر الإلهي العظيم صدر لمجموع السموات والأرضين كوحدتين متقابلتين إحداهما علوية والأخرى سفلية ، وجاء الجواب بلفظ جمع المذكر السالم نظراً إلى أن السموات سبع ، والأرضين سبع ، ثم عوملت السموات والأرض معاملة من يعقل، فالمقام مقام خطاب من الخالق جل شأنه ، وفهم للخطاب ثم إجابة حكيمة واعية لهذا الخطاب.

يقول القرطبي : وقال (طائعين) ولم يقل : طائعتين على اللفظ ، ولا طائعات على المعنى لأنهما سموات وأرضون ، ولأنه أخبر عنهما وعمن فيهما وقيل: لما وصفهن بالقول والإجابة وذلك من صفات من يعقل ، أجراهما في الكناية مجرى من يعقل ، ومثله ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [١] ١ هـ وبنحو ذلك قال النسفى [٢].

وجعل جار الله الآية من باب مجاز التمثيل ، أو : تخييلا لغرض تصوير أثر قدرته في المقدورات لا غير ، من غير أن يحقق شيء من الخطاب والجواب ونص عبارته رحمه الله :

ومعنى أمر السماء والأرض بالإتيان ، وامتثالهما أنه أراد تكوينهما فلم تمتنعا عليه ، ووجدتا كما أرادهما ، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه فعل الآمر المطاع .

وهو من المجاز الذي يمسى التمثيل ، ويجوز أن يكون تخييلا ، ويبنى الأمر فيه على أن الله تعالى كلم السماء والأرض ، وقال لهما ائتيا شئتما ذلك أو أبيتما. فقالتا: أتينا على الطوع لأعلى الكره .

(١) تفسير القرطبي ٣١٤/١٥ .
(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل ٩١/٤.

والغرض: تصوير أثر قدرته في المقدورات لا غير ، من غير أن يحقق شيء من الخطاب والجواب ١ هـ [١]

قلت: وغير خاف عليك أن المفسرين متفقون على أن الحمل على الظاهر أولى، ولا يلجأ للمجاز إلا عند المقتضى أي: عند تعذر الحمل على الظاهر ، وهنا لا مقتضي ، ولا مسوغ للحمل على المجاز ، فكيف يحمل جار الله الآية على مجاز التمثيل، أو التخييل .

وقد اعترض عليه ابن المنير رحمه الله قائلاً :

قد تقدم إنكاري عليه إطلاق التخييل على كلام الله تعالى ، فإن معنى هذا الإطلاق لو كان صحيحاً والمراد منه التصوير لوجب اجتناب التعبير عنه بهذه العبارة لما فيها من إيهام وسوء أدب. والله أعلم .

والقول بالظاهر ، وكونها نطقت حقيقة هو ما استحسنه ابن عطية وقال : لأنه لا شيء يدفعه ، وإنما العبرة به أتم ، والقدرة فيه أظهر . ١هـ

قال جار الله : فإن قلت : ما معنى (طوعا أو كرها) ؟

قلت : هو مثل للزوم تأثير قدرته فيهما ، وأن امتناعهما من تأثير قدرته محال، كما يقول الجبار لمن تحت يده : لتفعلن هذا شئت أو أبيت ولتفعلنه طوعاً أو كرها.

فإن قلت : هلا قال (طائعتين) على اللفظ ، أو : طائعات على المعنى لأنها سموات وأرضون ؟

ثم أجاب بمثل ما نقلته عن القرطبي ، وبالنظر الدقيق في السؤال الذي طرحه الزمخشري وأجاب عليه ترى أن الجواب يصح لسؤال مقتضاه :

لماذا آثر النص القرآني جمع من يعقل دون غيره ؟

ولنترك صاحب الانتصاف يبين لنا ما في سؤال الزمخشري وجوابه حيث يقول رحمه الله :

قلت : لم يحقق الجواب عن السؤال الآخر ، وذلك أن في ضمن الآية سؤالين:

---

(١) الكشاف ٣/٣٨٤.

أحدهما : لم ذكرها وهي مؤنثة ، وهذا هو السؤال الذي أورده .

الثاني : أتى بها على جمع العقلاء ، وهي لا تعقل ، وهذا لم يذكره، فالجواب الذي ذكره مختص بالسؤال الذي لم يذكره ، ولهذا نظره بقوله (ساجدين) [١]، فإن تلك الآية ليس فيها سوى السؤال عن كونها جمعت جمع العقلاء ، فأما السؤال الآخر فلا، لأن الكلام راجع إلى الكواكب ، وهي مذكرة ، والشمس وإن كانت مؤنثة إلا أنه غلب في الكلام المذكر على المؤنث على المنهاج المعروف.

فأما هذه الآية فتزيد على تلك بهذا السؤال الآخر ، وهو أن جميع ما تقدم ذكره من السموات والأرض مؤنثة فيقال :

أولاً : لم ذكرها ؟

وثانياً : لم أتى جمعها المذكر على نعت جمع العقلاء ؟

ليتحقق نسبة السؤال والجواب ، والطوع اللاتي تختص بالعقلاء لا بها ، ولم يوجد في جمع المؤنث عدول إلى جمع المذكر لوجود الصيغة المرشدة إلى العقل فيه، فتمت الفائدة بذلك على تأويل السموات والأرض بالأفلاك – مثلا – وما في معناه من المذكر ، ثم يغلب المذكر على المؤنث ، ولا يعدم مثل هذا التأويل في الأرضيين أيضا. ١هـ [٢]

وحكى الطبري أن بعض أهل العربية علل الجمع بأن المراد السموات والأرض ومن فيهن ، وعن قوم : أنهما لما تكلمتا أشبهتا الذكور – يعني تغليبا – من بني آدم .

وقال النيسابوري : في تعليل إيثار التعبير بجمع المذكر السالم دون غيره قال: إن جمع المؤنث السالم لا يختص بالعقلاء "

وعن حكمة الجمع قال : لأن أقل الجمع اثنان ، أو : لأن كل واحد منهما سبع ١ هـ بتصرف . [٣]

---

(١) آخر الآية (٤) من سورة يوسف .

(٢) الكشاف ٣/٣٨٥ والهامش .

(٣) تفسير الطبري ٢٤/٦٤ وهامش ٦٨ .
وانظر ابن كثير ٤/٩٣ .

ولك أن تقول :

باعتبار العالم العلوى كوحدة ، والعالم الأرضي كوحدة ، ذكر الله أنهما (قالتا) وباعتبار تعدد كل وحدة منهما عبر بالجمع ، وإيثار جمع من يعقل لما سبق من الخطاب والجواب ، وإيثار جمع المذكر السالم دون غيره من باب التغليب ، وليدل أنهما من جملة الطائعين لله أي : هما ومن فيهما مما يقدره الله تعالى أو : من فيهما من النجوم والكواكب ، والبحار والأنهار ونحو ذلك .

قال الكسائي :

قوله (أتينا طائعين) ولم يقل : طائعات أي : أتينا بمن فينا طائعين ويكون لما أخبر عنهن بالإتيان أجرى عليهم ما يجرى على من يعقل من الذكور أو : أنه رأس آية. ١ هـ [١]

وقال النحاس : لمراعاة الفاصلة . [٢]

نعم مراعاة الفاصلة غرض مقصود في الكلام ، ولكن ليس غرضا مستقلا في إيثار لفظ على لفظ ، أو تقديم لفظ على لفظ ، أو التعبير بما يخالف مقتضى الظاهر، فإن جعل رعاية الفاصلة هي السر في كل المواطن أو كما يقال شماعة يعلق عليها كل موضع قول يجنى على المعاني الجمالية ، والبدائع البيانية في النص القرآني ، كما أن هذا التعليل وحده في كل موضع يحجر على التأمل في مرامي السياق القرآني، والوقوف على ملمح بلاغي يكون وليد نظرة متأنية وفكر دقيق.

المثال الحادي عشر : منفطر بمكان منفطرة

قال تعالى : ﴿ **السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا**﴾ المزمل ١٨

في ظلال الآية الكريمة :

الآية الكريمة مسوقة للتخويف من أهوال يوم القيامة ، هذا اليوم الذي تشيب من هوله الولدان ، وتنفطر من عظمته السماء ، فالذي لم يؤمن بالله إيمانيا حقيقياً كيف يقي نفسه من أهوال هذا اليوم .

---

(١) معاني القرآن للكسائي ص٢٢٤ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٥١/٤ .

وفى حاشية الجمل : (كان وعده مفعولا) أعاد الضمير على الله تعالى وإن لم يجرله ذكر للعلم به ، فالوعد مصدر مضاف لفاعله ، ويصح عوده لليوم فيكون مضافا لمفعوله ، أي : وعد يوم القيامة ، والفاعل محذوف ومعنى (مفعولا) أي: مقضى نافذ لا يرد . كما قال ﴿ **مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ**﴾ [١] .

والسؤال : لفظ (السماء) مبتدأ ، وهو مفرد مؤنث ، وخبره (منفطر) مفرد مذكر. فما الحكمة من عدم مطابقة الخبر مبتدأه ؟ ولا يخفى عليك أن مقتضى الظاهر أن يقول : السماء منفطرة به .

وللإجابة على هذا السؤال نقول :

قد نظر العلماء في هذه الآية ، والتمس كل له وجها يجعل بينه وبين أصول العربية نسبا وصهراً.

وكما ذكرت آنفا فإن أهل المعاني وجل المفسرين يوجهون الآية توجيها لغويا مجرداً في كثير من الأحيان من إيراز لحكمة تأنس بها النفس ، أو تجلية لسر يطمئن به وإليه القلب.

فمنهم من ذهب إلى القول بالمجاز في (السماء) وأن المراد بها السقف .

ومنهم من قال إن (السماء) تذكر وتؤنث .

ومنهم من قال في الكلام تقدير. أي : موصوف مقدر تقديره (شيء منفطر)

يقول القرطبي :

قال أبو عمرو بن العلاء :.لم يقل منفطرة لأن مجازها السقف ، تقول : هذا سماء البيت . قال الشاعر :

فلو رفع السماء إليه قوما ∴ لحقنا بالسماء وبالسحاب

وفى التنزيل "وجعلنا السماء سقفا محفوظا" [٢]

وقال الفراء : السماء يذكر ويؤنث

---

(١) سورة الشورى ٤٧ – وانظر حاشية الجمل ٤٣٢/٤ .

(٢) سورة الأنبياء الآية ٣٢ .

وقال أبو علي الفارسي: هو من باب الجراد المنتشر ، والشجر الأخضر، و﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ (١)

وقال أبو على – أيضاً – : أي : السماء ذات انفطار ، كقولهم : امرأة مرضع أي: ذات إرضاع ، فجرى على طريق النسب ١ هـ (٢)

وقال صاحب الإرشاد :

والتذكير لإجرائه على موصوف مذكر ، أي شيء منفطر ، عبر عنها بذلك للتنبيه على أنه تبدلت حقيقتها ، وزال عنها اسمها ورسمها ، ولم يبق منها إلا ما يعبر عنه بالشيء .

وقيل : لتأويل السماء بالسقف .

وقيل : هو من باب النسب أي : ذات انفطار . ١ هـ (٣)

ونقل العلامة الجمل عن السمين قوله : لم تؤنث الصفة لأحد وجوه :

١- تأويلها بمعنى المشتق .

٢- أو : أنها على النسب .

٣- أو : أنها تذكر وتؤنث .

٤- أو : أنها اسم جنس ، يفرق بينه وبين واحده بالتاء فيقال : سماءة ، وقد تقدم أن في اسم الجنس التذكير والتأنيث ، لهذا قال الفارسي : هو كقوله (جراد منتشر) و (أعجاز نخل منقعر) ، يعني فجاء على أحد الجائزين . ١ هـ (٤)

وبنحو ذلك قال الخطيب الشربيني في تفسيره . (٥)

وكذا ابن عطية في تفسيره . (٦)

---

(١) سورة القمر الآية ٢٠ .

(٢) تفسير القرطبي ٥١/١٩ .

(٣) إرشاد العقل السليم ٣٢٣/٦.

(٤) حاشية الجمل على الجلالين ٤٣٢/٤ .

(٥) السراج المنير ١٦٩/٤.

(٦) المحرر الوجيز ٣٨٩/٥.

واقتصر البيضاوي على قولين فقال : والتذكير على تأويل السقف ، أو: إضمار شيء . (١)

وزاد عليهما الزمخشري احتمالا ثالثا وهو : النسب أي : ذات انفطار . (٢)

وقال بقوله النسفي في مداركه (٣)

وبنحو ما نقل عن السمين قال زين الدين الرازي في الأنموذج (٤)

وذهب بعضهم إلى أن (منفطر) كقولك : مرضع للتي من شأنها أن ترضع، وأما (منفطرة) فتجئ على العمل كقولك : منشقة ، وكقولك : مرضعة للتي ترضع بالفعل، فكأن (منفطر) وصف قائم بالسماء أي : من شأنها ذلك.

وفى هذا الكلام نظر ، ولا يسلم إلا بتكلف إذ الآية تصور مشهداً من مشاهد الآخرة .

والقول بأن السماء تذكر وتؤنث غير شاف ولا كان في الجواب ، إذ السؤال قائم ما حكمة التذكير هنا ، مع أن القرآن الكريم يعامل السماء تسعا وعشرين مرة معاملة المؤنث إسناداً إليها ، ووصفا لها ، وإعادة للضمير عليها ، ولم يستعملها مذكرة ولا مرة لا نصا ولا احتمالا ، فلماذا إذن يغاير القرآن في هذا الموضع ؟؟

إنه سؤال يحتاج إلى جواب ، والبيت الذي استشهدوا به أوسع من الدعوى، لأنه يمكن أن يقال : إن الشعر له ضروراته ومقتضياته ، فالضرورة الشعرية تجيز مالا يجوز في غيرها.

ويذهب الأستاذ/ على النجدى إلى اختيار رأي أبي عمرو بن العلاء وهو أن المراد من السماء مجازها أي : السقف ، ثم يعقب عليه تعقيبا هو غاية في النفاسة أنقله إليك بنصه : قال :

فمذهب أبي عمرو في السماء هو المذهب ، لكن حمل السماء على البناء أولى من حملها على السقف ، لأنها لم تحمل عليه حينما ذكرت في القرآن الكريم إلا في

---

(١) تفسير البيضاوي ٣٩٢/٥.

(٢) الكشاف ١٥٥/٤ .

(٣) مدارك التنزيل ٣٠٥/٤.

(٤) الأنموذج الجليل من غرائب آي التنزيل ص٥٠٦

قوله تعالى﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [١] على حين أنه يجعلها بناء ، ويعبر عن خلقها بالفعل (بنى) ست مرات ، منها قوله سبحانه ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [٢] وقوله﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ [٣] ، ويجعل لها في موضعين اثنين أبوابا تفتح ، والأبواب – فيما يعهد الناس – من خصائص البناء وما يلحق به ، فقال جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ [٤] والبناء بعد أدل على إحكام الخلق، وقوة التماسك، ويذكر القرآن فيما يذكر من أحوال السماء أنها خلقت بأيد ، وأنها وثيقة الإلتحام فيقول ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ [٥] ، ويقول﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [٦]

ثم إن العربية ترسل البناء مثلا في قوة التماسك ، ولهذا يقول الله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [٧]، ويقول الرسول – صلوات الله عليه – "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا" .

فإذا ارتضينا أن يكون البناء لا السقف هو مجاز السماء كان في الكلمة (منفطر) على خلافها لكلمة السماء إشارة إلى البناء ، ودعوة لاستحضاره ، وأنه ملحوظ فيه معنى وإن لم يذكر لفظا ، وهو بذلك أحق أن يكون أبلغ تأثيراً وأهول تصويراً لأحداث اليوم الموعود ، ستتشق السماء طوعاً لإرادته سبحانه ، لا يغنى عنها أنها وثيقة البنية ، وأنها خلقت بأيد ، وليس فيها فطور ، فالآمر هو الله جل جلاله، وهو – سبحانه – إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون . ١ هـ [٨]

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٣٢ .
(٢) سورة البقرة الآية ٢٢ .
(٣) سورة النازعات الآية ٢٧ – ٢٨ .
(٤) سورة الأعراف الآية ٤٠ .
(٥) سورة الذاريات الآية ٤٧ .
(٦) سورة ق الآية ٦ .
(٧) سورة الصف الآية ٤ .
(٨) انظر مع القرآن الكريم ص ١٣٨ وما بعدها.

فـــائدة

الباء في قوله تعالى (منفطر به) سببية ، والمعنى : السماء منفطر بسبب ذلك اليوم وما فيه .

وجوز الزمخشري أن تكون للاستعانة حيث قال : الباء في به مثلها في قولك : فطرت العود بالقدوم فانفطر به .

وذهب القرطبي إلى أن الباء بمعنى الظرفية (في)

والضمير (الهاء) إما يرجع لليوم ، أو : الأمر ، أو : يرجع لله تعالى أي: بأمره جل شأنه. [١]

المثال الثاني عشر : أمشاج بمكان مشج

قال تعالى﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ الإنسان ٢

في ظلال الآية : الكريمة :

هذه هي الآية الثانية في سورة الإنسان ، وقد أخبرنا الله في الآية الأولى أن الإنسان قد أتى عليه طائفة محدودة من الزمن الممتد غير المحدود ، سواء أريد بالإنسان آدم عليه السلام أم أريد به جنس الإنسان ، فعلى الأول :

الحين مدة بقاء آدم طينا قبل نفخ الروح فيه .

وعلى الثاني : مدة الحمل

وحمل بعضهم (هل) في صدر السورة على الاستفهام التقريري ، على معنى التقرير لمن أنكر البعث ، فلابد وأن يقول : نعم قد مضى دهر طويل لا إنسان فيه.

فيقال له : من أحدثه بعد أن لم يكن ، وكونه بعد عدمه ، كيف يمتنع عليه بعثه وإحياؤه بعد موته ، وهو معنى قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾[٢]

---

(١) السراج المنير ٤٦٩/٤ . وانظر القرطبي ٥١/١٩ .
(٢) سورة الواقعة الآية ٦٢ وانظر حاشية الجمل ٤٥١/٤ .

ثم تأتي الآية الثانية لتحدثنا عن الأصل الذي خلق منه الإنسان ، والذي يرجع في تكوينه إليه ، فيذكر أنه مخلوق من دفقة من ماء مهين ، ومع كونه كذلك فهو خلق عجيب ، يسمع ويبصر ، ويحس ويشعر ، ويعقل ويفكر ويتدبر ، فسبحان ربي الأعلى الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

والخلق : أصله التقدير المستقيم ، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء أي : الإيجاد من عدم على غير مثال سابق ، ويستعمل في إيجاد الشيء من الشيء ، والخلق بمعنى الإبداع لا يكون إلا لله تعالى . (١)

والنطفة : هي الماء الصافي ، ويعبر بها عن ماء الرجل وماء المرأة .

قال المفسرون : كل ماء قليل في وعاء فهو نطفة . (٢)

وقال صاحب المفردات : أمشاج : أخلاط من الدم ، وذلك عبارة عما جعله الله تعالى بالنطفة من القوى المختلفة ، المشار إليها بقوله﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ**﴾ إلى قوله ﴿ **ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ** ﴾ (٣)

إن نطفة الرجل ونطفة المرأة قد اختلط كل منهما بالآخر ، مع أن كلا منهما مختلف الأجزاء ، متباين الأوصاف في الرقة والثخن ، والقوام والخواص ، فماء الرجل غليظ أبيض ، وماء المرأة رقيق أصفر ، وأيهما علا كان الشبه له.

وفي القرطبي نحو هذا عن ابن عباس ، وفي البزار مرفوعا. (٤)

ويبعد قول من قال المراد بالأمشاج كونها علقة ثم مضغة ثم ما بعد ذلك لأن هذا تحول عن النطفة ولا يعقل أن تسمى النطفة علقة ، ونطفة مضغة ، لأن هذا أطور النطفة.

وذهب بعضهم إلى أن (أمشاج) هي ألوان النطفة(٥) وهو ليس ببعيد عن القول الأولى (نبتليه) أي : نعامله معاملة المبتلى للمبتلى ، والإنسان – كما لا يخفي – مبتلى بالخير والشر بالصحة والمرض ، بالغني والفقر ، الخ.

---

(١) بتصرف من المفردات للراغب ص ١٥٨ .

(٢) تفسير الطبري ١٢٦/٢٩ ، القرطبي ١٢٠/١٩ ، الخطيب الشربيني ٥٠٣/٤.

(٣) سورة المؤمنون ١٢ – ١٤ وانظر المفردات ص٤٨٩ .

(٤) تفسير القرطبي ١٢١/١٩.

(٥) راجع ذلك في تفسير الطبري ١٢٧/٢٩ ، والقرطبي ١٢١/١٩ والفخر الرازي ٢٣٦/٣٠.

وذهب بعضهم إلى أن الابتلاء هنا بالتكليف أي : بالأمر والنهي ، والآية على ما قالوا فيها تقديم وتأخير أي : فجعلناه سميعاً بصيراً لنبتليه .

ولا شك أن القول الأول أولى وهو المتبادر جد التبادر إلى الذهن ولم يرتض القول بالتقديم والتأخير شيخ المفسرين .

وقال بعد عزوه إلى بعض أهل العربية: إنه لا يصح عندي لأن الابتلاء إنما هو بصحة الآلات ، وسلامة العقل من الآفات وإن عدم السمع والبصر ، وأما إخباره إيانا بأنه جعل لنا أسماعا وأبصاراً في هذه الآية فتذكير منه لنا بنعمة ، وتنبيه على موضع الشكر ، فأما الابتلاء فبالخلق مع صحة الفطرة وسلامة العقل من الآفة اهـ بتصرف يسير . (١)

ولعمر الحق إنه لتخريج عظيم ، وتأويل مستقيم .

وقد وجه الآية أيضاً توجيهاً نحوياً الكرخي في تفسيره كما نقله عنه الجمل:

قال : المعطوف عليه هو إرادة الابتلاء لا الابتلاء ، وفي هذا رد على من قال بالتقديم والتأخير ، ووجه الرد أنه لا حاجة إلى مثل هذى الدعوى مع صحة المعنى بدونها. اهـ بتصرف وتلخيص. (٢)

كما نقل الجمل عن الشهاب قوله : (نبتليه) حال مقدرة ، مؤول بقوله : مريدين ابتلاءه . اهـ (٣)

والسؤال : قوله ﴿ **مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ**﴾ صفة وموصوف ، والموصوف مفرد، والصفة جمع ، فكيف يقع الجمع صفة للمفرد ؟

هل يمكن أن يقال : لأن المفرد في معنى الجمع ، فالنطفة عبارة عن ماء كل من الرجل والمرأة ، أو: لأن الجمع (أمشاج) يصير مآله إلى شيء واحد ، وفي ذلك دلالة على باهر القدرة وعظيم الخلق.

لننظر إلى ما قاله المفسرون في ذلك :

---

(١) انظر تفسير الطبري ١٢٧/٢٩

(٢) حاشية الجمل ٤٥٣/٤ .

(٣) المرجع السابق.

قال القرطبي : قال أهل المعاني : الأمشاج ما جمع وهو في معنى الواحد، لأنه نعت للنطفة . [١]

ولم يرتض أبو البركات النسفى كون (أمشاج) جمعاً ، بل قال إنها مفرد وإليك نص عبارته: (أمشاج) نعت أو : بدل من (نطفة) امتزج فيها المآن ، ومشجه مزجه بمعنى ، ونطفة أمشاج كبرمة أعشار ، فهو لفظ مفرد غير جمع ولذا وقع صفة للمفرد.[٢]

وكذا جزم الزمخشري بأن (أمشاج) مفرد فقال رحمه الله :

(من نطفة أمشاج) كبرمة أعشار ، وبرد أكياش[٣] وهي ألفاظ مفردة غير جموع، ولذلك وقعت صفات للأفراد ، ويقال : نطفة مشج ، ثم استشهد ببيت للشماخ:

طوت أحشاء مرتجة لوقت ∴ على مشجع سلالته مهين[٤]

ولا يصح (أمشاج) أن يكون تكسيراً له أي : مشجع ، بل هما مثلان في الإفراد لوصف المفرد بهما ، ومشجه ومزجه بمعنى ١ هـ [٥]

وتبع الفخر الرازي الزمخشري فيما ذهب إليه. [٦]

وكذا القاضي البيضاوى ذكر الاحتمالين ولم يرجح اللهم إلا أن يقال إنه ذكر القول بالإفراد بصيغة: وقيل . ، وهي عند المحققين صيغة تمريض. [٧]

---

(١) تفسير القرطبي ١٢١/١٩.

(٢) تفسير النسفي ٣١٧/٤ .

(٣) معنى برمة أعشار أي : القدر المتكسرة قطعا ، وبرد أكياش أي : الثوب الذي فتل غزله مرتين، يقال: عليك بالثوب الأكياش فإنه من لباس الأكياس. انظر الغرائب والرغائب للنيسابوري – هامش الطبري ١١٠/٢٩.

(٤) والشماخ يصف امرأة قبلت المني في فرجها ، وطوت قبلها عليه ، (مرتجه) صفة للأحشاء أي : مغلقة إلى وقت تمام الحمل على مني مختلط من مني الرجل ومنيها ، سلالته أي : ما انسل وتدفق منه مهين حقير.

ثم قال : أمشاج : مفرد على صورة الجمع كأخلاق ، وقيل : جمع مشج ١هـ مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف ص١٣٤ .

(٥) تفسير الكشاف ١٦٧/٤ .

(٦) تفسير الفخر الرازي ٢٣٦/٣٠.

(٧) تفسير البيضاوى ٤١٥/٥ .

وقال القاضي أبو السعود العمادي:

(أمشاج) جمع مشج أو : مشيج ، من مشجت الشيء إذا خلطته ، وصفت النطفة به لما أن المراد بها مجموع الماءين ، ولكل منهما أوصاف مختلفة من اللون والرقة ، والغلظ ، وخواص متباينة. ، ثم قال : وقيل : مفرد كأعشار وأكياش. ١هـ[١]

وعبارة أبي السعود هي نفس ما قاله البيضاوي .

وممن جزم بكون (أمشاج) جمعاً :

أبو حيان حيث قال : (أمشاج) أخلاط وهو وصف للنطفة ، والمراد بالنطفة الجنس فلذلك وصفت بالجمع كقوله ﴿ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ [٢] ، أو لتنزيل كل جزء من النطفة نطفة . ، ثم نقل أبو حيان قول الزمخشري وعقب عليه بقوله : وقوله مخالف لنص سيبويه والنحويين على أن أفعالاً لا يكون مفرداً. ١هـ [٣]

وذكر العلامة الآلوسي كلام أبي السعود – وإن لم يعزه – كما ذكر ما قاله الزمخشري ثم عقب قائلاً : وجمهور النحاة على أن أفعالاً لا يكون جمعا ١هـ [٤]

ولا أدري كيف أن (أفعالاً) لا تكون جمعا ، وماذا يقال في مثل : أنصار ، أعوان أرباع ، أجزاء ، أصحاب.

قال ابن مالك : **أفعلة أفْعُل فعلة ∴ ثمت أفعال جموع قلة**

قال ابن عقيل في شرحه : جمع التكسير على قسمين جمع قلة وجمع كثرة، فجمع القلة تدل حقيقته على ثلاثة فما فوقها إلى العشرة ، وجمع الكثرة يدل على ما فوق العشرة إلى غير نهاية ، وقد يستعمل كل منهما في موضع الآخر مجازاً ، وأمثلة جمع القلة : أفعلة كأسلحة ، أفعل كأفلس ، فعلة كفتية ، وأفعال كأفراس ، وما عدا هذه الأربعة من جموع التكسير فجموع كثرة ١هـ [٥]

---

(١) تفسير أبي السعود ٣٤٠/٦.

(٢) سورة الرحمن الآية ٧٦ .

(٣) البحر المحيط ٣٩٣/٨ ولعل في العبارة سقطا أو تصحيفا أو تحريفا فهي غير واضحة المراد لأن الزمخشري لم يقل : إن أفعالا لا تكون مفردة بل قال إن (أمشاج) لا يصح أن يكون تكسيراً.

(٤) روح المعاني ١٥٢/٢٩ .

(٥) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ص٤٥٠.

ونقل العلامة الجمل عن السمين قوله : (أمشاج) نعت لنطفة ، ووقع الجمع صفة لمفرد ، لأنه في معنى الجمع ، أو : جعل كل جزء من النطفة نطفة ، فاعتبر ذلك فوصف بالجمع . اهـ (١)

ونقل ابن عطية عن ابن السكيت وغيره أن : (أمشاج) معناه : أخلاط واحدها مشج بفتح الميم والشين. اهـ (٢)

ووصف المفرد بالمفرد يعني أن الموصوف يتصف بصفته اتصافا مجرداً لا يدل على خطه منها قوة وضعفا، ولكنه يميزه في جنسه ، ويحد من المشاركة في صفته أما وصف المفرد بالجمع فيدل على أن الصفة لا تقوم بموصوفها في جملته كما في وصف المفرد بالمفرد ، ولكنه يدل على أن الصفة تقوم بموصوفها في أجزائه تفصيلاً ، وتستوعبه جزءاً فجزءاً . (٣)

وعلى ذلك فوصف النطفة بالأمشاج لا يعني أن امتزاجهما كامتزاج أي سائلين بحيث يصيران سائلاً واحداً ، أو : كالواحد ، بل يعني أن امتزاجهما أشد قوة وأبعد أثراً.

فهذه النطفة والتي هي قليل من المنى لما اختلطت ببعضها من الزوجين فصارت أمشاجا أخلاطا منوية ، تحتوي على أخلاط أخلاقية وراثية وأخلاط وراثية في الصفات والطباع ونحو ذلك ، إنها ليست مشجا واحدا بل أمشاج وقد تأتي بأخلاط من أب الأب وإن علا ، وأم الأب ، وأب الأم وأم الأم وهكذا إنها كما يقول صاحب الظلال:

الوراثات الكامنة في النطفة المكونة من خلية الذكر وبويضة الأنثى ، وهي ما تسمى علميا بالجينات ، وهي وحدات الوراثة الحاملة للصفات المميزة لجنس الإنسان أولا، ولصفات الجنين العائلية أخيراً ، ثم وراثة الصفات الخاصة في الأسرة، ولعلها في هذه الأمشاج المختلطة من وراثات شتى . اهـ بتصرف وتلخيص(٤)

---

(١) حاشية الجمل ٤٥٢/٤.
(٢) تفسير ابن عطية ٤٠٨/٥.
(٣) بتصرف من حاشية الصبان ٤٧/٣.
(٤) في ظلال القرآن ٦١٤٥/٦ .

وأساتذة علم الأجنة يقررون أنه يساهم كل من الحيوان المنوي والبويضة بنصيب مماثل في تكوين نواة الخلية الأمشاج ، ثم إن الحيوان المنوي يحتوي على ثلاث وعشرين كروموسوما ، واحد منها جنسي ، والبويضة تحتوي كذلك على نفس المقدار وواحد منها جنسي ، وعلى هذا فكل من الحيوان المنوي والبويضة (النطفة) خلية واحدة ، والخلية الجسدية تحتوي على ست وأربعين كروموسوماً ، وعبر هذه الكروموسومات تنتقل الصفات الوراثية من الآباء والأجداد منتقاة . (١)

فهل ترى بعد هذه الجولة أن التعبير بالأمشاج في الآية الكريمة أبلغ وأبين للإعجاز الإلهي والقدرة الربانية المبدعة الخلاقة ، أو لكون النطفة بها ملايين الحيوانات المنوية فصارت أمشاجاً لا مشجا واحداً . ؟؟

والله أعلم بأسرار كتابه

---

(١) انظر هذا الموضوع في كتاب أطوار خلق الإنسان للدكتور / أحمد شوقي ص٧٦.

المطلب الثالث
نماذج من خلاف مقتضى الظاهر في الضمائر

المثال الأول (ضمير الجمع بمكان ضمير المفرد)

قال تعالى ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴾ البقرة ١٧

في ظلال الآية :

في هذه الآية الكريمة يضرب الله مثلا يبين حال المنافقين ومآلهم ، هؤلاء الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ، حيث آثروا بقاءهم على كفرهم وأبطنوه جبنا وخبثا ، وأظهروا الإيمان رياءً ونفاقاً .

والأمثال إنما تضرب لإيضاح المعنى الخفي وإبرازه في صورة الأمر الجلي، وتقرب الحكم المعقول إلا العقول ، وتبرزه في صورة المشاهد المدرك ، وتعرض الغائب في صورة الحاضر المشاهد ، ليكون المعنى الذي ضرب له المثل أوقع في النفس وأثبت في القلب.

و(مثلهم) أي : صفتهم ، وأصل المثل بمعنى المثل ، والمثيل والنظير والشبيه ثم أطلق على القول السائر المعروف لمماثلة مضربه – وهو الذي يضرب فيه لمورده – الذي ورد فيه أولاً – وهذا بناء على الغالب في استعمال الأمثال ، وهذا القيد لإخراج أمثال القرآن من هذا الإطلاق ، لأن الله تعالى ابتدأها وليس لها مورد . ، ولا يكون المثل إلا فيما فيه غرابة ، ثم استعير للصفة أو : الحال ، أو : القصة وذلك إذا كان لها شأن عجيب وفيها غرابة .

يقول الحافظ ابن كثير : وتقدير هذا المثل : أن الله سبحانه وتعالى شبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى ، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى بمن استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله ، وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله ، وتأنس بها، فبينا هو كذلك إذ طفئت ناره ، وصار في ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدي. ١هـ [١]

وسواء أكان هذا المثل قد ضرب لقوم دخلوا في الإسلام عقيب هجرته ﷺ إلى المدينة ثم تحولوا بعد ذلك إلى الكفر والنفاق.

---

(١) تفسير ابن كثير ٥٣/١.

أم أنه ضرب لقوم لم يسبق لهم إيمان أصلا ، بل دخلوا أول ما دخلوا الإسلام نفاقاً. فهم منافقون في كلا الحالين.

قال ابن الجوزي: وفي ضرب المثل لهم بالنار ثلاث حكم :

إحداها : أن المستضيء بالنار مستضيء بنور من جهة غيره لا من قبل نفسه، فإذا ذهبت تلك النار بقى في ظلمة ، فكأنهم لما أقروا بألسنتهم من غير اعتقاد قلوبهم ، كان نور إيمانهم كالمستعار.

والثانية : أن ضياء النار يحتاج في دوامه إلى مادة الحطب ، فهو له كغذاء الحيوان، فكذلك نور الإيمان يحتاج إلى مادة الاعتقاد ليدوم .

والثالثة : أن الظلمة الحادثة بعد الضوء أشد على الإنسان من ظلمة لم يجد معها ضياء ، فشبه حالهم بذلك. ١ هـ [١]

والسؤال :

بالنظر في الآية الكريمة نرى أن صدرها جاء بالإفراد ﴿ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ﴾ ثم جاءت الضمائر بعد ذلك جمعا ﴿ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ ﴾ ﴿يُبْصِرُونَ﴾ فما هي الحكمة من الإتيان بضمير الجمع بمكان المفرد ؟

وما سر هذه المخالفة ؟

حكى ثعلب عن الفراء : أن المثل ضرب للفعل لا لأعيان الرجال ، وهو مثل للنفاق ، وإنما قال ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ لأن المعنى ذاهب إلى المنافقين فجمع لذلك.

وحكى ثعلب عن آخرين: أن (الذي) معناه : الجمع ، وحد أولا للفظه ، وجمع بعد لمعناه ، قال الشاعر :

فإن الذي حانت بفلج دماؤهم ∴ هم القوم كل القوم يا أم خالد. [٢]

وكذا قال (الذي) بمعنى (الذين) ابن قتيبة [٣] ، والقاسمي [٤] ، وابن عطيه عزا القول بأن (الذي) اسم مبهم يقع للواحد والجمع للنحويين . [٥]

---

(١) زاد المسير ٤٠/١.
(٢) زاد المسير ٣٩/١.
(٣) تأويل المشكل ص ٣٦١.
(٤) محاسن التأويل ٢٨٣/١ .
(٥) المحرر الوجيز ٩٩/١ .

ونقل العلامة الجمل نحو هذا عن السمين . [١]

وقال الزمخشري: وضع (الذي) موضع (الذين) كقوله ،﴿ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُواْ﴾ [٢] ، والذي سوغ وضع الذي موضع الذين ، ولم يجز وضع القائم موضع القائمين ولا نحوه من الصفات أمران:

أحدهما: أن الذي لكونه وصلة إلى وصف كل معرفة بجملة ، وتكاثر وقوعه في كلامهم ، ولكونه مستطالا بصلته ، حقيق بالتخفيف ، ولذلك نهكوه بالحذف ، فحذفوا ياءه ، ثم كسرته ، ثم اقتصروا به على اللام وحدها في أسماء الفاعلين والمفعولين.

والثاني : أن جمعه ليس بمنزلة جمع غيره بالواو والنون ، وإنما ذلك علامة لزيادة الدلالة ، ألا ترى أن سائر الموصولات لفظ الجمع والواحد فيهن واحد.

أو : قصد جنس المستوقدين .

أو : أريد الجمع ، أو : الفوج الذي استوقد ناراً ، على أن المنافقين وذواتهم لم يشبهوا بذات المستوقد حتى يلزم منه تشبيه الجماعة بالواحد ، وإنما شبهت قصتهم بقصة المستوقد. اهـ [٣]

وبنحو ذلك قال أبو السعود [٤]

وفي النهر الماد قال أبو حيان: (الذي) وصف لمفرد في معنى الجمع ، وليس (الذي) مثل (من) لفظا ومعنى ، كما نقل عن أبي علي – الفارسي – والأخفش اهـ [٥]

وقال الأخفش : (الذي) في معنى الجميع ، كما يكون الإنسان في معنى الناس. [٦] واعترض الطبري – رحمه الله تعالى – على من قال (الذي) هنا بمعنى (الذين)

---

(١) حاشية الجمل ٢١/١.

(٢) سورة التوبة الآية ٦٩.

(٣) الكشاف ٣٨/١ .

(٤) إرشاد العقل السليم ٦٩/١.

(٥) هامش البحر المحيط ١٤/١.

(٦) معاني القرآن للأخفش ٢٠٩/١.

وقال: لا يصح لأحد نقل الكلمة التي هي الأغلب في استعمال العرب على معنى إلى غيره إلا بحجة يجب التسليم لها. اهـ بتصرف وتلخيص [١]

وأنقل إليك هذا التحقيق النفيس الذي قاله العلامة الآلوسي تعقيبا على ما قاله القاضي أبو السعود وغيره ، قال رحمه الله :

(الذي) وضع موضع (الذين) إن كان ضمير (بنورهم) راجعا إليه ، وإلا فهو باق على ظاهره ، إذ لا ضير في تشبيه حال الجماعة بحال الواحد ، وجاز هنا وضع المفرد موضع الجمع ، وقد منعه الجمهور .

فلم يجوزوا إقامة : القائم مقام القائمين لأن هذا مخالف لغيره لخصوصية اقتضته ، فإنه إنما وضع ليتوصل به إلى وصف المعارف بالجمل ، فلما لم يقصد لذاته توسعوا فيه ، ولأنه مع صلته كشيء واحد وعلامة الجمع لا تقع حشواً ، فلذا لم يلحقوها به ، ووضعوه لما يعم كمن ، وما .

و(الذين) ليس جمعا له ، بل هو اسم وضع مزيداً فيه لزيادة المعنى ، وقصد التصريح بها ، ولذا لم يعرف بالحروف كغيره على الأفصح ، ولأنه استطال بالصلة فاستحق التخفيف حتى بولغ فيه إلى أن اقتصر على اللام في نحو اسم الفاعل ، قاله القاضي وغيره [٢]

ولا يخلو عن كدر ، لاسيما الوجه الأخير ، وما روى عن بعض النحاة من جواز حذف نون الذين ليس بالمرضى عن المحققين .

ثم قال : فالوجه أن يقال : إنه نظر إلى ما في (الذي) من معنى الجنسية العامة إذ لا شبهة في أنه لم يرد به مستوقد مخصوص ، ولا جميع أفراد المستوقدين ، والموصول كالمعرف باللام يجرى فيه ما يجري فيه.

واسم الجنس وإن كان لفظه مفرداً قد يعامل معاملة الجمع كقوله ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ ﴾ [٣] ، وقولهم : الدينار الصفر والدرهم البيض .

---

(١) تفسير الطبري ١٠٩/١.

(٢) هذا معنى ما قاله القاضي أبو السعود ، وليس نص كلامه انظر تفسير أبي السعود ٦٩/١ وما بعدها.

(٣) سورة الإنسان الآية ٢١ .

أو يقال : إنه مقدر له موصوف مفرد اللفظ مجموع المعنى كالفوج ، والفريق، فيحسن النظام ، ويلاحظ في ضمير (استوقد) لفظ الموصوف ، وفي ضمير (بنورهم) معناه. ١ هـ [١]

وبنحو ذلك قال البيضاوي ملخصا . [٢] وكذا النيسابوري مختصرا . [٣]

وهكذا – كما رأيت – تواطأت كلمة جل المفسرين أن (الذي) ها هنا بمعنى الجمع ، فقد روعي في قوله (استوقد) ، (حوله) اللفظ ، كما روعي في قوله﴿ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ ..... لاَّ يُبْصِرُونَ ﴾ المعنى ، ومراعاة اللفظ أولا ثم مراعاة المعنى آخراً هو ما تقتضيه فصاحة الكلام .

والتفنن في إرجاع الضمائر متفرعة كل إلى ما يليق به ضرب من استعمال البلغاء ، إذ أنه يقرر المعنى في الذهن ويهبه فضل تمكن ، وزيادة تأكيد بما يحدث فيه من الروية والتوجه إلى الإحاطة بمعاني الكلام .

والله أعلم بأسرار كتابه

المثال الثاني : قال تعالى :

﴿ حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ المؤمنون ٩٩ – ١٠٠

في ظلال الآيات :

يخبرنا الله تعالى عما يقوله الكافرون حين معاينة الموت من سؤال الرجعة إلى الدنيا ، ليصلحوا ما كانوا قد أفسدوا حال حياتهم ، فالكافر لا يزال في حياته مقترفا للمعاصي ، مرتكبا للموبقات ، فاعلا للفواحش والمحرمات ، لا يبالي بشيء ، ولا يراعي إلا ولا ذمة ، ولاحقا ولا حرمة ، فهو سادر في غيه حتى يفجأه الموت ، ويعاين أهواله ومقدماته فيعض أصابع الندم ، ويتجرع كأس الحسرة ، وتشرئب نفسه

(١) روح المعاني ١٦٣/١ وما بعدها .
(٢) تفسير البيضاوي ٩٢/١ .
(٣) غرائب القرآن – هامش الطبري ١٦٤/١.

إلى طلب المحال ، فيتمنى الرجوع إلى الدنيا مرة ثانية ، ليصلح ما أفسد ، وليجبر ما كسر، وليرقع ما مزق ، ولكن أني له ذلك وقد فات أوان كل ذلك .

ها هو القرآن الكريم يصور حالهم أدق تصوير ، وهم يطلبون ذلك كلما عاينوا هولا من الأهوال التي لهجت ألسنتهم بتكذيبها. ونظير آيتنا **﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾** [١] وقوله **﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾** [٢]

وقوله **﴿..... فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾** [٣] وقوله **﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ....﴾** [٤] وقوله **﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾** [٥] وقوله **﴿ وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا ﴾** [٦] وقوله **﴿ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾** [٧] وقوله : **﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ...﴾** [٨]

فهم في آيتنا يطلبون المحال حين الاحتضار ومعاينة الأهوال ، وفي باقي الآيات يطلبون المحال كذلك في سائر الأحوال ، لاسيما وهم بين أطباق النار يعذبون وفي كل تلك الأحوال لا يجابون.

(١) سورة المؤمنون الآيات ١٠٦ – ١٠٧ .
(٢) سورة السجدة الآية ١٢ .
(٣) سورة الأعراف الآية ٥٣ .
(٤) سورة إبراهيم الآية ٤٤ .
(٥) سورة غافر الآية ١١ .
(٦) سورة الأنعام الآية ٢٧ .
(٧) سورة الشورى الآية ٤٤.
(٨) سورة فاطر الآيات ٣٦ – ٣٧.

قال القرطبي : وليس سؤال الرجعة مختصا بالكافر ، فقد يسألها المؤمن كما في آخر سورة المنافقون [١]، ودلت الآية على أن أحداً لا يموت حتى يعرف اضطراراً أهو من أولياء الله أم من أعداء الله ، ولولا ذلك لما سأل الرجعة فيعلموا ذلك قبل نزول الموت وذواقه . اهـ [٢]

والمولى سبحانه وتعالى يردعهم ، ويذكرهم على لسان ملائكته (كلا)

وقوله ﴿ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ أي : الله تعالى فلا خلف في خبره ، وقد أخبر انه لن يؤخر نفسا إذا جاء أجلها ، كما أخبر بأن هذا الكافر لا يؤمن .

وقيل – كما في القرطبي – : هو قائلها أي : الكافر عند موته ، ولكن لا تنفع.

وقوله (ومن رائهم) أي : أمامهم وبين أيديهم ، ويجوز : ومن خلفهم .

والبرزخ : الحاجز بين الشيئين ، والمراد به كما في الفتوحات الإلهية : المدة التي من حين الموت إلى البعث . [٣]

والسؤال :

ترى في الآية نداء وسؤالا (قال رب) ، (ارجعون) والصيغتان غير متفقتين، فقد جاء النداء بالإفراد ، وجاء السؤال بالجمع . فما الحكمة من مجيء الآية على خلاف مقتضى الظاهر ؟

ويمكن أن نقول : إن سؤال الكافر جاء بصيغة الجمع ، زيادة في التعظيم منه للحق جل شأنه بغية تحقيق طلبته أي : من باب التودد والتزلف أو : أنه قال رب ثم توجه بالكلام إلى الملائكة القابضين قائلاً : ارجعون أو : أن هذا لما لحقه الهول الذي لا يطاق ، وغشيه ما لم يكن في حسبانه ، فاختل عقله ، واضطرب توازنه ، وتلعثم لسانه ، فنادى على ربه بالإفراد والتوحيد ، ثم سأله بصيغة الجمع إذ أن التوحيد ليس من طبعه ، ولم يألفه ، ولم يتعود عليه لسانه فغلبه طبعه ، والطبع يغلب التطبع فقال

---

(١) قوله تعالى (وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ) الآية ١٠

(٢) تفسير القرطبي ١٥٠/١٢.

(٣) الفتوحات الإلهية ٢٠٢/٣ .

(ارجعون) هيا بنا نستطلع رأي أهل الاختصاص لنستجلي منهم وجه الحقيقة في هذا الأداء القرآني المعجز .

يقول الكرخي – فيما نقله عنه الجمل في فتوحاته :

لم يقل : رب ارجعني ، وإنما لما كان المخاطب هو الله تعالى جمع الضمير تعظيما ، أو : الواو لتكرير ارجعون كأنه قال : ارجعني ارجعني ، نقله أبو البقاء ، وهو يشبه ما قالوه في قوله﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ [١] أنه بمعنى : ألق ألق ثنى الفعل للدلالة على ذلك . اهـ بتصرف يسير [٢]

وذكر أبو البقاء العكبري الوجهين السابقين ، وزاد ثالثا فقال :

أو : أنه أراد يا ملائكة ربي ارجعون . [٣]

وذكر القرطبي هذه الأقوال الثلاثة ، وعزا الثاني للمزني ، والثالث لابن جريج. [٤]

أما صاحب البحر فقد ذكر قولين فقط هما إما التعظيم ، أو : أنه أراد يا ملائكة ربي ارجعون . وعليهما اقتصر ابن عطيه . [٥]

واقتصر زين الدين الرازي على أن الجمع لإرادة التعظيم . [٦]

وذكر ابن قتيبة الآية تحت عنوان : ومنه أن يخاطب الواحد بلفظ الجمع .

وقال : وأكثر من يخاطب بهذا الملوك ، لأن من مذاهبهم أن يقولوا : نحن فعلنا ، يقوله الواحد منهم يعني نفسه ، فخوطبوا بمثل ألفاظهم . [٧]

وهو توجيه لا يشفى من علة ولا يروى من غلة .

---

(٤) تفسير القرطبي ١٤٩/١٢ .

(٥) البحر المحيط ٤٢١/٦ ، والمحرر الوجيز ١٥٦/٦.

(٦) غرائب آي التنزيل ص٣٢٨ .

(٧) تأويل مشكل القرآن ص٢٩٣.

والزركشي في البرهان ذكر الأقوال الثلاثة – السابقة – ثم نقل عن السهيلي قوله : هو قول من حضرته الشياطين وزبانية العذاب ، فاختلط ، ولا يدري ما يقول من الشطط ، وقد اعتاد أمراً يقوله في الحياة من رد الأمر إلى المخلوقين. ١ هـ [١]

واكتفى كل من القاضي أبي السعود العمادى ، والقاضي ناصر الدين البيضاوي بأن الجمع للتعظيم ، أو : أنه دل بلفظ الجمع على تكرار القول كأنه قال: رب ارجعني ارجعني . [٢]

وذكر العلامة الشنقيطي الاحتمالات الثلاثة ، واستظهر أولها ، واستشهد له بقول حسان أو غيره :

ألا فارحموني يا إله محمد ∴ فإن لم أكن أهلا فأنت له أهل

كما استشهد لمن قال : إنه أراد يا ملائكة ربي ارجعون بما ذكره ابن جرير عن ابن جريج قال : قال رسول الله ﷺ لعائشة : "إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا: نرجعك إلى دار الدنيا ؟ فيقول : إلى دار الهموم والأحزان ، فيقول : بل قدموني إلى الله ، وأما الكافر فيقولون له : نرجعك ؟ فيقول : رب ارجعون" .

واستبعد قول من قال : دل بلفظ الجمع على تكرار القول . [٣]

وأما فارس الميدان جار الله الزمخشري :

فقد ذكر القول الأول ، واستشهد له بالبيت السابق ، كما ذكر الأثر المروي عن ابن جريج . [٤]

وذكر النيسابوري : أن الجمع للتعظيم ، أو أنه للدلالة على تكرار القول، أو: قوله (رب) للقسم ، والخطاب للملائكة القابضين للأرواح أي : بحق الله ارجعون ثم

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٢/٢٣٥.

(٢) تفسير أبي السعود ٤/٤٣٢ ، تفسير البيضاوي ٤/٥٩ .

(٣) أضواء البيان ٥/٣٥٥ ، وانظر تفسير الطبري ١٨/٤٠ .

(٤) الكشاف ٣/٥٦ ولم يعز صاحب مشاهد الانصاف البيت لأحد ، وقال في شرحه : وخاطب الإله الواحد بخطاب الجمع حريا على عادة العرب من خطاب السادة والملوك بذلك تعظيما . ، وقيل: إشارة إلى تكرار الفعل للتوكيد كأنه قيل: ارحمني ارحمني ارحمني . انظر ص٩٩.

قال: والأقرب أن الجمع للتعظيم كقول الشاعر : ألا فارحموني يا إله محمد . ١ هـ بتصرف وتلخيص . [١]

ويجمع لنا ما قيل من احتمالات في توجيه الآية الكريمة العلامة الألوسي فيقول : الجمع للتعظيم .

أو : على تقدير مضاف أي : يا ملائكة رب ارجعون

أو : (رب) استغاثة به تعالى ، و (ارجعون) خطاب للملائكة ، وقال : ربما يستأنس لذلك بما أخرجه ابن جرير ، وذكر الأثر السابق أو: الجمع ليدل على تكرار الفعل .

ثم ذكر استشكالاً للخفاجي على القول الأخير ، ورد عليه . ١ هـ بتصرف وتلخيص [٢]

وبعد هذه الجولة حول ذلك اللفظ القرآني البديع لعلك ترى معي أن مجئ اللفظ على غير مقتضى الظاهر حيث جاء ضمير الجمع بمكان ضمير المفرد إنما هو لحكمة جليلة وغاية عظيمة سواء أقلت : إنه للتعظيم توسلا بذلك إلى تحقيق المطلوب ، وتوددا وتقربا إلى علام الغيوب ، وكان يكفيهم في الدنيا عشر هذا ، أم قلت : إنه طلب من الملائكة الطاهرين والزبانية الحاضرين والمباشرين لقبض أرواحهم ﴿ **وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ** ﴾ [٣]

أم قلت : إنه خلط من هؤلاء ، وعدم استقامة منهم على حال واحدة من الكلام لأنهم لم يألفوا الاستقامة ولا التوحيد في حياتهم فالطبع غلاب .

أم قلت : إن الكلمة للتكرار ، كأنهم لهول ما عاينوا تكرر طلبهم مرات ومرات. فإن كل هذه الاحتمالات لا تتأتى ولا تتوقع لو خرج الكلام على وفق مقتضى الظاهر.

والله أعلم بأسرار كتابه .

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١٨/٣١ على هامش الطبري

(٢) روح المعاني للآلوسي ١٧/٦٣.

(٣) سورة الأنفال الآية ٥٠.

المثال الثالث : ضمير المذكر بمكان ضمير المؤنث

قال تعالى ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ عبس ١١ – ١٦

في ظلال الآيات :

(كلا) حقا (إنها) أي: القصة اللطيفة ذات المعاني الشريفة ، والتوجيهات الخفيفة (تذكرة) وعظ وتنبيه لكل قارئ للقرآن الكريم ، ثم وصف الله سبحانه هذه التذكرة بأنها لمن شاء الاهتداء ، فهي إذن في متناول كل مريد ، وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. وهذه التذكرة (في صحف مكرمة) أي: في خاتمة الكتب الإلهية المقدسة وهو القرآن الكريم ، أو : في اللوح المحفوظ ، وعلى كل حال فهذه الصحف المكرمة (مرفوعة مطهرة) مرفوعة حسا ، ومرفوعة معنى وقدراً، مطهرة ظاهراً وباطناً ، لا تشوبها شوائب الضلالات ، ولا تمسها إلا أيدي ملائكة رب الأرض والسموات ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾.

وفي محاسن التأويل :

إنها أي : المعاتبة المذكورة موعظة يجب الاتعاظ بها ، والعمل بموجبها.

وقال الشهاب : وكون عتابه ﷺ على ما ذكر عظة لأنه مع عظمة شأنه، ومنزلته عند الله إذا عوتب على مثله فما بالك بغيره .

ويجوز عود الضمير في (إنها) على الآيات ، أو: السورة ، أو: الوصية بالمساواة بين الناس ، أو : لدعوة الإسلام.

﴿ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ أي : حفظه من الذكر ضد النسيان ، أو: اتعظ به من التذكير ، والسفرة يجوز أن يكونوا هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ويجوز أن يكونوا هم الملائكة الكرام . اهـ بتصرف يسير (١)

والمرجع عند المفسرين أن السفرة الكرام البررة هم الملائكة. وهو اختيار الطبرى وغيره ، قال أبو بكر بن العربي: لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ سفرة كراما برة ، لكن ليسوا بمرادين بهذه الآية ولا قاربوا المرادين بها ، بل هي لفظة

(١) محاسن التأويل للقاسمي ٣٢٧/٩ .

مخصوصة بالملائكة عند الاطلاق ، ولا يشاركهم بها سواهم ، ولا يدخل معهم في متناولها غيرهم . اهـ (١)

والسؤال :

الناظر في الآيات يرى أن الضمير في (ذكره) لمذكر ، وأن مرجعه مؤنث وهو (تذكرة) وإذن فليس هنا تطابق بين الضمير ومرجعه. فهل هناك من حكمة أو مغزى لهذا التخالف ؟؟

والجواب :

نقول ما جاء على أصله لا يسأل عن علته ، ولكن الذي يسأل عن علته هو ما جاء على خلاف الأصل ، لاسيما والمتكلم هو الحق جل شأنه الذي له صفات الكمال والجمال والجلال ، المنزه عن كل عبث ونقص .

فهل يعود الضمير في قوله (ذكره) على القرآن الكريم ، وإن لم يجر له ذكر في هذا المقام لكونه معهوداً ومعلوماً ، واللحاق يدل عليه وينادي به حيث قال ربنا ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ.. ﴾ وهذه الأوصاف الراجح أنها للقرآن الكريم.

والقصة السابقة جاءت – على هذا الاحتمال – بمثابة الحث والتحضيض على تذكر القرآن ، والرجوع إليه والاعتماد عليه ، والاستفادة المتعددة مما جاء به.

فكأنه لما ذكر هذه القصة العجيبة العظيمة الفائدة وبين أن فيها تذكرة، أخذ القرآن هذه الفرصة أعنى أن الجو مهيئ لإسداء النصح ، وإلقاء التوجيه ، والنفوس متفتحه لقبوله ، والاستزادة منه ، أقول : لما كان الأمر كذلك وجه الحق تعالى خلقه إلى أن من أراد المزيد فعليه بالقرآن﴿ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ ثم أثنى الحق سبحانه وتعالى على القرآن الكريم بما ينفي عنه كل شائبة نقص ، ويرفع عنه كل زيف أو وهم، ثم أثنى على حامليه والناقلين له من رب العالمين.

وهذا على غرار قول الحق سبحانه في وصف الأبرار في سورة المطففين﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ*عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ وفي هذا الجو النفسي الرائع ، والقلوب مفتحة،

(١) أحكام القرآن لابن العربي ١٩٠٦/٤ ، تفسير القرطبي ٢١٦/١٩.

والعقول مهيأة ، والنفوس متطلعة لأن تكون من أصحاب هذه الأوصاف إذ بالقرآن الكريم في جملة اعتراضية يعطي التوجيه الرائع ، ويسدى النصيحة الغالية ليعدل كل راغب مساره﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ أي : هذا هو مجال التنافس الحقيقي لمن أراد ، وليس التنافس في الأموال ولا في الأولاد ولا في مظاهر الحياة الفانية بل إن التنافس الحقيقي في ذلك – أي في الاتصاف بأوصاف الأبرار – وانظر إلى الاختصاص والاهتمام الذي عناه القرآن بتقديم الجار والمجرور (وفي ذلك) ثم الإشارة بأداة الإشارة الدالة على البعد ، والأمر الإرشادي في (فليتنافس) إلى غير ذلك ، ثم يعاود القرآن حديثه عن صفات الأبرار فيقول ﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ... ﴾ والله أعلم.

والآن هيا معي نستطلع آراء المفسرين :

قال القرطبي : قال الجرجاني : (إنها) أي : القرآن ، والقرآن مذكر ، إلا أنه لما جعل القرآن تذكرة ، أخرجه على لفظ التذكرة ، ولو ذكّره لجاز ، كما قال تعالى ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾ (١)، ويدل على أنه أراد القرآن قوله ﴿ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ أي : كان حافظا له غير ناس ، وذكر الضمير لأن التذكرة في معنى : الذكر والوعظ . اهـ (٢)

وفي كون الضمير في قوله (إنها تذكرة) مراد به القرآن في النفس من هذا القول شيء ، ولا أراه مستساغا ، ولم لا يقال : الضمير للآيات النازلة ، وكون القرآن كله تذكرة حسبما أفادته آية المدثر لا يخفى ولكل مقام مقال . والإمام زين الدين افترض السؤال وأجاب عليه فقال :

إن قيل : كيف قال الله تعالى ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ ثم قال سبحانه ﴿ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ ولم يقل : ذكرها ؟

قلنا : الضمير المؤنث لآيات القرآن ، أو : لهذه السورة ، والضمير في قوله (ذكره) راجع إلى القرآن ، وقيل : راجع إلى معنى التذكرة ، وهو الوعظ والتذكير لا إلى لفظها . اهـ . (٣)

---

(١) سورة المدثر الآية ٥٤ .

(٢) تفسير القرطبي ٣٥/١٩ .

(٣) من غرائب آي التنزيل ص٥٢٠.

ويذهب جار الله إلى أن ضمير (ذكره) عائد على تذكرة ، وأنها مصدر ، والمصدر معناه الحدث ، وهو مذكر ، أي : إن (تذكرة) مؤنثة اللفظ مذكرة المعنى. ونقل هذا المعنى عنه القاسمي في تفسيره ، واكتفى به الجمل في حاشيته . (١)

وقال أبو البقاء في الإملاء : الضمير في (ذكره) للقرآن اهـ . (٢)

وقال القاضي أبو السعود :

١- الضميران للقرآن ، وتأنيث الأول لتأنيث خبره (إنها تذكرة) .

٢- وقيل : الأول (إنها) للسورة أو : للآيات السابقة .

والثاني (ذكره) للتذكرة ، لأنها في معنى الذكر والوعظ . وليس بذلك فإن السورة والآيات وإن كانت متصفة بما سيأتي من الصفات الشريفة لكنها ليست مما ألقي على من استغنى عنه ، واستحق بسبب ذلك ما سيأتي من الدعاء عليه ، والتعجب من كفره المفرط لنزولها بعد الحادثة.

وأما من جوز رجوعهما إلى العتاب المذكور فقد أخطأ وأساء الأدب ، وخبط خبطا يقضي منه العجب ، فتأمل وكن على الحق المبين اهـ

ولله در القاضي أبي السعود العمادى حين لم يرتض رجوع الضمير الثاني للتذكرة وإن كانت بمعنى : الذكر والوعظ ، بقوله : وليس بذاك .

وأما اعتراضه شديد اللهجة على رجوع الضميرين للعتاب المذكور ، ووصفه لقائل ذلك بما وصفه فإنه اعتراض غير واضح العلة ، ويحتاج إلى نظر ، إذ ما هو المحذور حين نقول : إن الضمير في قوله (إنها) لآيات العتاب السابقة ، والثاني: للقرآن بصفة عامة ، ويكون قوله تعالى (فمن شاء ذكره) اعتراض جيء به للترغيب في القرآن والحض على حفظه والاتعاظ به ، والجملة المعترض بها تقترن بالفاء عند المحققين من أهل الصناعة ، ولا يلتفت إلى من منعه .

قال ابن عطيه : (كلا) يا محمد أي : ليس الأمر في حقه كما فعلت .

---

(١) انظر الكشاف ١٨٥/٤ ، محاسن التأويل ٣٢٨/٩ ، حاشية الجمل على الجلالين ٤٨٨/٤ ، وانظر هامش ٤٥٢/٤.

(٢) إرشاد العقل السليم ٣٧٨/٦.

إن هذه السورة والقراءة التي كنت فيها مع ذلك الكافر (تذكرة) لجميع العالم لا يؤثر فيها أحد دون أحد .

وقيل المعنى : إن هذه المعتبة تذكرة لك يا محمد ، ففي هذا التأويل إجلال لمحمد ﷺ وتأنيس له ، وقوله تعالى ﴿ **فَمَن شَاء ذَكَرَهُ** ﴾ يتضمن وعداً ووعيداً، على نحو قوله ﴿ **فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا** ﴾ (١)

وأضاف ابن كثير احتمالين آخرين فقال : فمن شاء ذكر الله تعالى في جميع أموره ويحتمل عوده إلى : الوحي .

وعند التأمل ترى أن الأقوال كلها متقاربة إلى حد كبير في مرجع الضمير الثاني (ذكره) إلى القرآن الكريم وإن لم يسبق له ذكر ، أو : إلى التذكرة إذ هي بمعنى الذكر ، أو : إلى الله تعالى ، أو : إلى الوحي.

والأكثرون على الأول فهو الأرجح ، ولا يمنع من عودته عليه عدم ذكره قبل الضمير صراحة ، فالمقام يدل عليه ، والسياق يقتضيه ، ثم إن العربية تتوسع في مرجع الضمير ، ولا تلتزم ذكره بلفظه في كل مقام ، فدلالة المقام ، أو : فحوى الكلام يدل عليه ؛ ومن ذلك قوله تعالى ﴿ **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى...** ﴾ (٢) فإن ضمير (عليها) يرجع إلى الأرض كما قال المفسرون.

قال البيضاوي : وإنما أضمرها من غير ذكر لدلالة الناس ، أو الدابة عليها اهـ(٣) وحقا فالناس لا يكونون إلا في الأرض التي منها خلقوا وعليها يعيشوا ، وفيها يعادوا ، ومنها يخرجوا ، والدبيب لا يكون إلا في الأرض.

وإذا ما عاد الضمير إلى القرآن فإنه بذلك ينبه الغافل ليتذكر أن القرآن هو المنهل العذب الفرات ، والغيث الفياض ، والأصل الجامع الذي يأخذ منه المهتدون ما شاء الله لهم أن يأخذوا من المواعظ والحكم ، وما هذه الموعظة التي تستخلص من

---

(١) المحرر الوجيز ٤٣٧/٥ .

(٢) سورة النحل الآية ٦١ .

(٣) تفسير البيضاوي ٢٤١/٣ .

قصة ابن أم مكتوم إلا مثال مقتبس منه ، وقطرة من فيضه العميم . والله أعلم بأسرار كتابه الكريم .

المثال الرابع :

قال تعالى ﴿ **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاء مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ النحل ٥٨ – ٥٩

في ظلال الآيات :

هاتان الآيتان الكريمتان في سياق الآيات التي يعدد الله تعالى فيها جنايات الكفار وقبائحهم ، ومنها جحودهم لنعم الله تعالى ، وجؤارهم إليه تبارك اسمه وقت الشدة، فإذا زالت عادوا إلى شركهم وجحودهم ، وأيضا: فإنهم يجعلون لآلهتهم نصيبا من الحرث والأنعام وغيرهما تقربا إليه سبحانه ، ويجعلون لله الواحد الأحد الفرد الصمد – البنات ، وهم خزاعة وكنانة ويخصون أنفسهم بما يشتهون من الذكور .

يقول الشيخ / إسماعيل حقي ما ملخصه :

وإذا أخبر أحدهم بولادة الأنثى صار وجهه مسودا كناية عن الأغتمام ، وهو مملوء غيظا وغضبا على المرأة التي ولدتها ، يتوارى من القوم خجلا وحياء من سوء ما يشربه ، وخشية تعييرهم ، وخشية العار ، أيمسك ذلك المولود ، ويتركه على قيد الحياة وهو شاعر بالذل والهوان ؟ أم يخفيه في التراب بالوأد والدس فيه ، لقد بلغ بهم المقت إلى أن يهجر بعضهم البيت الذي فيه المرأة إذا ولدت له أنثى ، ألا بئس صنيعهم حيث فعلوا ما فعلوا ، وقالوا ما قالوا . اهـ بتصرف وتلخيص (١)

نعم ليس السواد المراد من الآية ما هو ضد البياض ، بل المراد الكناية به عن الانكسار والتغير الحاصل من الغم ، والعرب تقول لكل من لقى مكروها قد أسود وجهه غما وحزنا . قاله الزجاج.

وذهب الماوردي إلى أنه سواد اللون حقيقة . وعزاه للجمهور. (٢)

---

(١) تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ٣٠٩/٢ .

(٢) تفسير القرطبي ١١٦/١٠ ، فتح القدير ٢٤١/٣.

ولكن الأول أولى وأدل على حقيقة الحال.

وفي قوله ﴿ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ ﴾ احتمال آخر غير ما سبق

وهو ما ذكره ابن كثير حيث قال : إن أبقاها أبقاها مهانة ، لا يورثها ، ولا يعتني بها ، ويفضل أولاده الذكور عليها . ١ هـ [١]

فقوله (على هون) في موضع الحال من الفاعل ، أو : حال من المفعول به أي المبشر به .

والسؤال :

من ينظر إلى الضمائر في الآيتين الكريمتين ، والمرجع الذي تعود إليه يرى خلافا ظاهراً . فالضمائر هي (به) ، (يمسكه) ، (يدسه) الهاء في هذه الكلمات الثلاثة كلها ضمائر لمفرد مذكر .

والحديث في الآيتين عن الموءودة ، أي عن مفردة مؤنثه ، فلم تتوافق الضمائر وما تعود عليه . فما هو السر في عدم التوافق ، أو ما هي الحكمة من المخالفة بين الضمائر ومرجعها.؟؟

هل الحكمة مجرد اعتبار لغوي ؟ أو أن هناك أمراً معنوياً تريد الآية أن تشير إليه؟

إن جل المفسرين تكاد تجمع كلمتهم على أن تذكير الضمائر عائد على لفظ (ما) أي : مراعاة للفظها. [٢]

وقال الخطيب : وذكر الضمير في (يمسكه) و (يدسه) نظراً للفظ الولد أو: لكون الأنثى ولداً . [٣]

---

(١) تفسير ابن كثير ٥٧٣/٢.

(٢) انظر القرطبي ١١٧/١٠ – فتح القدير ٢٤١/٣ .
روح المعاني ١٦٩/١٤ – تفسير البضاوي ٢٤٠/٣ .
المحرر الوجيز ٤٠٢/٣ – زاد المسير ٤٥٨/٤ .
إرشاد العقل السليم ٧١/٤ .

(٣) السراج المنير ٢٦٨/٢ .

ومعلوم أن (ما) من الكلمات التي يجرى على لفظها حكم المذكر وعلى معناها حكم المؤنث ، وهي هنا في الحالين للمؤنث.

واستعمال (ما) للعاقل جائز وإن كان قليلاً .

قال الزركشي : (ما) تكون على اثنى عشر وجها ، ستة منها أسماء ، وستة حروف .

فالإسمية ضربان : معرفة ونكرة ، لأنه إذا حسن موضعها (الذي) فهي معرفة، أو: شيء فهي نكرة ، وإن حسنا معا جاز الأمران .

فالأول من الستة : الأسماء الخبرية ، وهي الموصولة ، ويستوي فيها التذكير والتأنيث ، والإفراد والتثنية والجمع .

ثم قال : وأصلها أن تكون لغير العاقل ، وقد تقع على من يعقل عند اختلاطه بما لا يعقل تغليبا .

وقد تأتي لأنواع من يعقل كقوله ﴿ فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ ﴾ [١] ، ولا تكون لأشخاص من يعقل على الصحيح ، لأنها اسم مبهم يقع على جميع الأجناس ، فلا يصح وقوعها إلا على جنس ، ومنهم من جوزه وفيه نظر ١هـ بتصرف وتلخيص . [٢]

ثم هل يمكن لنا أن نقول :

إن القرآن هنا يغوص في أعماق النفس البشرية ، وينبئ عما بداخلها وإن حاول صاحبه إخفاءه.

فهذا المبشر – بفتح المشددة – لما انطبعت عليه نفسه من هضم حق الأنثى، وغبنه إياها ، الأمر الذي يدفعه إلى إخفائها من الحياة كلية ، وإلى سترها في التراب حية، فهو يمسك لسانه أن يكني عنها بضميرها ، ويرفض أن يكون لها من اللغة نصيب مثل ما للذكر ، أي : ضمير خاص بها يدل عليها.

---

(١) سورة النساء الآية ٣ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ٣٩٨/٤ وما بعدها.

والمرء مخبوء تحت لسانه ، والكلام معبر عن مكنون القلب والنفس وكاشف عن مستور الضمير.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نقول : معلوم أن المرء يستنكف عن ذكر ما يحزنه ويضايقه ، وينأى عن كل ما يذكره بما يكرهه ، ويهيج سخطه ، ويعدل عن أي إشارة إلى ما لا يحب ، فيؤثر بناء على ذلك أن يذكره بوصف منكر ليس من أوصافه ولا هو مما يذكره الناس به .

ومن ناحية ثالثة أقول : قد ينفلت اللسان – في ثنايا الكلام – بما يتمنى المرء تحقيقه ، فيخرج من العبارات ما يدل على ما في قلبه من حب أو كره ، فهذا المبشر يتمنى في داخله الولد ، فلما بشر بالأنثى تكلم لسانه بما يهوى قلبه – وكما يقولون : كل ما يخرج من فيك فهو دليل على ما فيك – فذكر الضمائر التي تدل على منية النفس وقرة العين بالنسبة له .

والله تعالى أعلم بأسرار كتابه .

الخاتمة

إن هذا الموضوع ثري بالفوائد الجليلة ، غني بالحكم والأسرار الجزيلة، وكاشف عن جانب من أسرار النظم القرآني ، وهو – بلا شك – يحتاج إلى مزيد بحث ونظر ، وطول تأمل ومراجعة ، وهو حقيق بدراسات مستوعبة لجميع المواضع القرآنية التي جاءت على خلاف مقتضى الظاهر في نظر الناظر .

وقد تكلم فيه الأقدمون من الأئمة السابقين – جزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خيراً – في ثنايا تفاسيرهم ، وفي بطون مؤلفاتهم ، وبعضهم عقد له بابا مستقلاً في تأليفه ، وهذا هو عبدالله بن مسلم بن قتيبة المروزي المتوفي سنة ٢٧٦هت قد عقد له بابا في كتابه (تأويل مشكل القرآن) أسماه : باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه .

إلا أنه في بعض المواضع التي أوردها تحت هذا الباب كان يعتمد على الشواهد العربية ويكتفي بها ، دون ما ذكر أو إشارة إلى مثال لذلك من كتاب الله ، كما أنه أوجز الكلام إيجازاً في مواضع عديدة تحتاج حتما إلى بحث وإعادة نظر، كما عقد بابا عقبه أسماه (تأويل الحروف التي أدعى على القرآن بها الاستحالة وفساد النظم).

والإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤هـ تعرض لكثير من هذا في كتابه القيم البرهان في علوم القرآن ، وذلك في وجوه مخاطبات القرآن ، والخروج على خلاف الأصل وبيانه وأسبابه ، الخ .

وكذا غيرهما من الأئمة والمفسرين إلا أنها مواضع متناثرة ، وأمثلة متبعثرة، تحتاج إلى جمع وتحقيق ومراجعة وتأمل ، وإبراز للإعجاز القرآني من خلالها ، إذ هي مواطن أسئلة السائلين ، وتعنت المتعنتين ، وتشكك المتشككين .

وعلى كل حال فهذه دراسة لبعض نماذج من القرآن الكريم ، والاستقصاء يفوت كل محاولة ، ويجاوز كل طاقة ، لا أزعم – وما ينبغي لي – أنني فيما ذكرت، وما إليه أشرت في هذه الدراسة قد وفيت هذا الجانب حقه ، بل هي مجرد أضواء مسلطة على بعض المواضع لتكون بمثابة الدليل على أن هذا القرآن العظيم ببيانه الرائع ونظمه المعجز ليس فيه لفظ أو حرف يمكن أن يقوم مقامه غيره ، بل إن كل لفظ في القرآن عاشق لموضعه ، وكل موضع في القرآن جاذب للفظه .

وأسأل الله ألا أكون قد جنحت إلى زيغ ، أو خبطت على غير هـدى ، فهـي محاولة أبتغى بها ثواب المسعى ، وشرف الوسيلة والقربي ، ونية صالحة حاكت فـي صدري، ورغبة صادقة شدت من عزمي .

فإن أكن قد وفقت فمن الله الفضل والعون ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (١) . وهو سبحانه صاحب كل فضل ومولية ، ومانح كل علـم ومهديـه ، وإن عداني ما ارتجيت فمجتهد أخطأ ، ومحاول أخفق ، ومـا يـزال المـرء يخطـئ ويصيب ، وسيظل كذلك ما دام من البشر ، والعصمة للأنبياء ، والكمال المطلق لله عز وجل.

وحقا ينفد القول ولا تنفد كلمات ربي .

وصدق الله ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ (٢)

وصدق الله ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (٣)

وكتبه

حسن عبدالحميد حسن وتد

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد

في كلية أصول الدين – القاهرة

(١) سورة هود الآية ٨٨ .

(٢) سورة الكهف الآية ١٠٩ .

(٣) سورة الإسراء الآية ٨٨ .

أهم مراجع البحث

- القرآن الكريم .
- الإتقان في علوم القرآن للجلال السيوطي م سنة ٩١١ هـ ط/ ٤ / ٧٨ مصطفى الحلبي .
- البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي م سنة ٧٥٤ هـ ط/٢/١٩٨٣م دار الفكر بيروت.
- البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين الزركشي م سنة ٧٩٤هـ تحقيق/ أ/ محمد أبو الفضل إبراهيم ط/ مكتبة التراث / القاهرة.
- أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي م سنة ٥٤٣ هـ تحقيق أ/ على محمد البجاوى ط/ ١٩٨٧م – دار الجيل بيروت .
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي – ط الهيئة العامة المصرية للكتاب .
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للقاضي أبـي السـعود العمـادى ط الأولى / ١٩٩٩م دار الكتب العلمية – بيروت .
- أساس البلاغة لجار الله الزمخشري م سنة ٥٣٨هت ط/ ١٩٨٤/٤م . دار التنوير العربي – بيروت .
- أسباب النزول للواحدي م سنة ٤٦٨هـ تحقيق أ/ السيد أحمد صقر ط/٣/١٩٨٧م مؤسسة علوم القرآن .
- السراج المنير (تفسير الخطيب) للخطيـب الشـربيني ط/ دار الكتـب العلميـة بيروت/ الأولى / ٢٠٠٤ .
- إعجاز القرآن للقاضي أبي بكر الباقلاني – تعليق د/ محمد عبدالمنعم خفاجي ط/ دار الجيل – بيروت – الأولى ١٩٩١م .
- الإعجاز البياني د/ عائشة عبدالرحمن – بنت الشاطئ ط/ دار المعارف الثانيـة / ١٩٨٧م .
- أضواء البيان للشنقيطي ط/ دار الفكر / بيروت / ١٩٨٥م .
- المحرر الوجيز (تفسير ابن عطية) لابن عطية الأندلسى – تحقيق أ/ عبدالسـلام عبدالشافي ط الأولى / ٢٠٠١م – دار الكتب العلمية – بيروت .

- المعجزة الكبرى – القرآن للإمام محمد أبي زهرة ط دار الفكر العربي .
- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة م سنة ٢٧٦ هـ تحقيق أ/ السيد احمد صقر – ط الثانية / دار التراث – القاهرة ١٩٧٣م .
- تفسير البغوى – بهامش تفسير الخازن ط/ الحلبي .
- تفسير البيضاوي للقاضي البيضاوي – مكتبة النشرتي ١٤١٨هـ .
- تفسير القرآن العظيم للحافظ عماد الدين بن كثير مسنة ٧٧٤هـ ط/ عيسى الحلبي.
- تفسير تنوير الأذهان من تفسير روح البيان للبروسوى – اختصار الشيخ/ الصابوني – الأولى / ١٩٨٨م نشر دار الصابوني .
- تفسير الكشاف لجار الله الزمخشري م سنة ٥٣٨هـ ط/ دار المعرفة بيروت .
- تفسير المنار للأستاذ الشيخ / رشيد رضا ط/ ١٣٦٧/٣هـ دار المنار .
- تفسير المراغي للأستاذ / أحمد مصطفى المراغي ط/ الأولى/ ١٩٩٨م ، دار الكتب العلمية بيروت .
- التفسير الوسيط للدكتور / محمد سيد طنطاوي .
- جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري م سنة ٣١٠هـ ط/ دار الحديث – القاهرة .
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين الألوسي م سنة ١٢٧٠هـ ط/ دار التراث .
- زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ط/ ١٩٨٤/٣م ، ط/ المكتب الإسلامي.
- الشفاء للقاضي عياض .
- صحيح البخاري بشرح فتح الباري لابن حجر العسقلاني ط/ ١٩٧٨م ، مكتبة القاهرة .
- صحيح مسلم بشرح النووي – مكتبة الغزالي – دمشق – مؤسسة مناهل العرفان.
- فتح القدير للشوكاني م سنة ١٢٥٥هـ ط/ الأولى / ١٩٩٣م ، نشر دار الحديث القاهرة .
- الفتوحات الإلهية (حاشية الجمل علي الجلالين) ط / عيسى الحلبي .

- فقه اللغة وأسرار العربية لأبي منصور الثعالبي المكتبة العصرية ٢٠٠٤م .
- لسان العرب لابن منظور – ط/ دار المعارف المصرية .
- لطائف الإشارات للقشيري – تحقيق د / إبراهيم بسيوني ، ط/ ١٩٨١/٢م – الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- محاسن التأويل للقاسمي م سنة ١٩١٤م ط/ دار الحديث .
- مجموع الفتاوي لشيخ الإسلام ابن تيمية ط / مكتبة النهضة الحديثة ١٤٠٤هـ .
- مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازي ط/ دار الفكر – بيروت – الثالثة / ١٩٨٥م.
- معاني القرآن للأخفش – تحقيق ودراسة د/ عبدالأمير محمد أمين ط/ عالم الكتب – الأولى ١٩٨٥م.
- معاني القرآن لعلي بن حمزة الكسائي – تحقيق د/ عيسى شحاته عيسى ، ط ونشر دار قباء سنة ١٩٩٨م .
- إلى غير ذلك من المصادر.

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٢
المطلب الأول	٦
مطلب تمهيدي فى الإعجاز القرآني	
المطلب الثانى	١٥
نماذج من خلاف مقتضى الظاهر في الاسم الظاهر	
المثال الأول : سورة البقرة الآية (٦١)	١٥
المثال الثاني : سورة البقرة الآية (١١١)	٢٠
المثال الثالث : سورة البقرة الآية (١٤٥)	٢٣
المثال الرابع : سورة مريم (٩٣ – ٩٥)	٢٦
المثال الخامس : سورة الحج (١ – ٢)	٢٩
المثال السادس : سورة الحج (٥) وسورة النور (٣١) وسورة غافر (٦٧)	٣٥
المثال السابع : سورة الشعراء (٥٢ – ٥٥)	٤٣
المثال الثامن : سورة الشعراء (١٥ – ١٦)	٤٧
المثال التاسع : سورة ص (٢١ – ٢٢)	٥٠
المثال العاشر : سورة فصلت (١١)	٥٤
المثال الحادي عشر : سورة المزمل (١٨)	٥٩
المثال الثاني عشر : سورة الإنسان (٢)	٦٤
المطلب الثالث	
نماذج من خلاف مقتضى الظاهر فى الضمائر	٧١
المثال الأول : سورة البقرة (١٧)	٧١
المثال الثاني : سورة المؤمنون (٩٩ – ١٠٠)	٧٥
المثال الثالث: سورة عبس (١١ – ١٦)	٨١
المثال الرابع : سورة النحل (٥٨ – ٥٩)	٨٦
الخاتمة	٩٠
أهم المراجع	٩٢